مشاهد أبكتني

الدكتور

خالد الزواوى

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس: ٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية

مشاهد أبكتني

مشـاهد أبكتنى

د. خالد الزواوى

كمبيوتر: (دار الوفاء)

الطباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن دربالة بلوك رقم ٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ – الإسكندرية

رقـم الإيـداع: ٧٢١٣/ ٢٠٠٢

الترقيم الدولى: 41 / 185 / 327 / 977

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الذين يتبجحون على الإسلام

يسيئون لشرعته ومناهجه ومقدساته

إلى الأشباح التي حققت شهرة محلية وعالمية

وتحصنت بالبذاءة والهيستيرية والازدراء

إلى الذين يغذون الخيال غير المنتج

إلى التغريبيين

إلى الشباب الهادئ المتطلع للحق

هــذا الكـتـاب

مجموعة مقالات ودراسات نقدية ، نشرت فى الصحف العربية، التى تـهتم وتعنى بقضايا الفكر المعاصر فى ميزان الإسلام ، وترتبط بما يتعرض له الناس فى هذه الأيام ، ومع القرن الحادى والعشرين تعلو موجات شاذة تدعونا لصدها، ومن ثم يدعونا التأمل الى الذات عبر العصور، قديمها وحديثها، والعودة إلى قدسية القرآن الكريم، ومراجعة نصوصه لترسم لنا الطريق، ولتكون آية نستبصر بها أمور حياتنا، وكذلك الأحاديث الشريفة، وسير الصحابة والخلفاء، وقد فصلت العناوين لتعين القارئ على فهم الأفكار والمعانى.. وقد بدأت هذه المجموعة بسلسلة حلقات حول الأمثال ومسيرتها فى القرآن الكريم ، وجعلت لكل حلقة عنوانا يتدرج تحته المثل كمدخل لمناقشة قضية من قضايانا المعاصرة، ومحاولة إيجاد مفتاح هذه القضايا من خلال عرض الأمثال، لعل فى ذلك إصلاحا نبتغيه لشئون حياتنا.

د. خـالد الـزواوى

الفصل الأول

(مسيرة الأمثال عبر الأجيال)

المقدمة

تحمل الأمثال لنا من الصور القديمة بعض المواقف التى عايشها السابقون، وقدموا لنا نتائج تجاربهم وخبراتهم فى كلمات حكيمة موجزة كثرت ودارت على الألسنة، من أجل ذلك سارع العرب الأقدمون إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة، إذ ألف فيها صحارى العبدى أحد النسابين فى أيام معاوية بن أبى سفيان (٤١- ٦٠ هـ) كتابا، كما ألف فيها عبيد بن شرية معاصره كتابا آخر، ويقول صاحب الفهرست إنه رآه فى نحو خمسين ورقة(الفهرست ص ٣٢). غير أن هذا الكتاب لم يصلنا، ولم يحاول من جاؤا بعده أن يفردوا الأمثال الجاهلية من الإسلامية، إذ درج أكثرهم على ترتيب الأمثال حسب الحروف الأولى على نحو ما ترتب المعاجم ألفاظها، فهم يرتبونها أو يؤلفونها فى تسعة وعشرين بابا بعدد أبواب الحروف الهجائية، وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليتها من إسلاميها فى كثير من الأحيان.

وأخذ التأليف فى الأمثال يكثر فى القرن الثانى، واعتنى علماء الكوفة والبصرة جميعا بها، ووصلنا عن هذا القرن كتاب " أمثال العرب" للمفضل الضبى، أما القرن الثالث فيؤلف أبو عبيد القاسم بن سلام فيه كتابا يشرحه من بعده أبو عبيد البكرى باسم " فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام". وألف أبو هلال العسكرى ، كتابه " جمهرة الأمثال" ويخلفه الميدانى ، فى كتابه " مجمع الأمثال " وقد رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتابا كما قال فى مقدمته.

والمثل هو الكلمة السائرة، بل أحيانا تسرد القصة أو الأسطورة التى تمخض عنها المثل ، وهى إحدى الإشارات التى تدل على جاهلية المثل ، أو ينسب المثل إلى جاهليين ، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة مثل لقمان عاد، تلك القبيلة اليمنية التى كانت تنزل فى الأحقاف ، والتى بادت ، ولم تبق منه باقية فى الجاهلية ؛ وهو غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن الكريم ، والذى عنيت به وبوصاياه كتب الفقه والتفسير مثل موطأ مالك ،وتفسير أبى حيان .

والمثل أن تلحق شيئا مجهولا بشىء معلوم أمامك، ويصبح له دلالته بعد ذلك. وعرف كثيرون بالأمثال ، وما يتصل بها من حكم أمثال أكثم بن صيفى ، وربيعة بن حذار، وهرم بن قطبة ، وعامر بن الظرب، ولبيد بن ربيعة(كما ذكرهم الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ٣٦٥/١) وأحكمهم أكثم بن الصيفى ، وعامر بن الظرب العدوانى ، ولحق أكثم الإسلام لأنه كان من المعمرين ، وحاول أن يعلن إسلامه ، فركب متوجها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات فى الطريق . وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة ، وقد ساق السيوطى فى المزهر طائفة منها ، نقلا عن ابن دريد فى أماليه (المزهر للسيوطى . طبعة الحلبى ١/١) . ومن حكيمات العرب ابنة عامر بن الظرب العدوانى ، وصحر بنت لقمان ، وهند بنت الخس، وجمعة بنت حابس.

والأمثال لون من الألوان الفكرية ، وهى تعتمد على التجربة العملية فى الحياة، وعلى المعرفة ببواطن الأمور، والنظرة العميقة إلى الحياة. ومن الأمثال ما يحمل آثارا من الفكر الدينى الذى يؤمن بوجود إله واحد ليس له شريك ، وأنه عليم بما يأتى به الغد ، ويؤمن بأن الموت نهاية كل حى ، وأكثر أمثالنا تنبعث من إناس مجهولين من عامة القبائل ، ولا يعين قائلها.

وإذا كانت هذه أمثالهم آمنوا بها ، وساروا عليها ، وجعلناها فى حياتنا دستورا نسير عليه، ونتبع آثاره، وهى من صنع البشر ، وأكثر الأمثال والحكم تنبعث غالبا من أناس مجهولين من عامة القبائل ممن لا يمجدون ، ولا يحفل بهم الناس ، فما بالنا بأمثال الله التى يضربها لهؤلاء البشر الحكماء منهم والعلماء والتابعين.

ونحن نحس فى المثال جمال الصيغة، والتنغيم الموسيقى للفظة، وقد نحس ضربا من الأخيلة لتجسيم المعنى وزيادته حدة وقوة، فقد عنى العرب فى الجاهلية بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فى المثال (وقد وصفهم القرآن بقوله:" ولتعرفنهم فى لحن القول" ، وقوله: " ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا") وكأنما أصبحت المقدرة البيانية عندهم سليقة من سلائقهم ، ولذلك لم يكن عجبا أن تكون " أمثال الله " على صدق آياته معجزة لا يستطيعون إنكارها...

والمثل حكمة ، يتخذها الإنسان شعارا له فى حياته ليحقق بها الضبط الذاتى والاجتماعى ، وهى من الله حكمة بالغة من وعيها فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، ومن جحدها وأنكرها وبعد عنها فقد بعد عن الهدى، وضل ضلالا بعيدا وتخبط فى حياته تخبط الناقة العشواء . والقرآن الكريم ملئ بالأمثال ، وهى تتميز بأنها تعتبر مدخلا من المداخل الإقناعية فى توصيل الرسالة للمتلقى ، مثلها مثل المداخل الإقناعية الأخرى التى توصف بأنها سمة من السمات الواضحة والمثيرة فى أسلوب القرآن الكريم ، ومن ذلك المدخل التربوى ، والقصصى والإخبارى، والتدريجى ، ومدخل المصارحة، والمجادلة والسخرية والمرونة ، والمدخل التعليمى والنفسى.

والأمثال القرآنية تتميز عن غيرها ، فهى عبارة عن رسائل بيانية مسموعة ومقروءة ، تهدف إلى إقناع المتلقين بقضايا وسلوكيات جديدة، وتستخدم أساليب متنوعة، موجهة إلى العقل وحده، أو مقترنا بالعاطفة داخل إطار واقعى ملموس . وقد انتشرت الأمثال القرآنية فى عشرين جزءا من أجزاء القرآن الكريم ، وذلك بنسبة ٦٦،٦٪ وقد استخدمها القرآن الكريم كأدلة وشواهد لدعم بعض الحقائق التى يدعو إليها ، والتى نعانى منها اليوم ، وفى هذا القرن الحادى والعشرين الذى نفتقد فيه الرجوع إلى الساحات الإسلامية حيث كانت الركائز ثابتة قوية قائمة على الدعائم التى أشارت إليها مداخل القرآن الكريم ، وحثت على اتباعها والعمل بها ، والتى صارت أدلة وشواهد لدعم كثير من الحقائق التى غفلنا عنها ، بينما تدعونا إليها دائما تلك الإشارات من مثل الإنفاق فى سبيل الله ، وعدم الغيبة وعدم نقض العهد ، والبعد عن الظلم والفساد ، وغير ذلك من قضايا عديدة يطرحها القرآن من خلال الأمثال . كما أنها تذكرنا بارتباطها بمجموعة من صفات الله عز وجل، فليتذكر الإنسان

القدرة والإرادة والحكمة فى كـل ما حوله ، وأن تلك الصفات ينبغى أن يتحلى بها ذلك الإنسان كى لا يطغى ، فالأمثال تراعى كل الثوابت والمتغيرات التى تؤثر على المتلقين ، وقد تعددت أساليب الإقناع فيها ما بين مـدح وذم وتخويف وترغيب ، كما تنوعت العناصر التى استخدمتها فى تجسيد أفكارها ما بين ضوء وصوت وحركة، وقد كانت الحركة عنصرا أساسيا فى ٩١٪ من مادتها، وقد أضفى ذلك الحيوية والتجدد على الصور التى ترسمها. ومن خلال تحليـل أسلوب الأمثال ، نخلص إلى مجموعة من السمات الإقناعية التى تميزها ، فهناك منهجية محددة اعتمدت عليها الأمثال فـى اختيار أصوات مادتها ، تبعا لمدى توافر الخصائص الإقناعية لهـا ، والتـى تتمثـل فـى الوضـوح السـمعى ، وقـوة التأثـير ، والجـرس الموسيقى ، والشيوع فى اللغة ، وسهولة النطق. وهناك أربع خصائص إقناعية تمتعت بها كلمات الأمثال القرآنية ألا وهى : عموم لغة الخطاب ، وبساطة هذه اللغة، ووضوح معناها ، وتوفير الاستمرارية لأحداثها كى يتعايش معها المتلقى عبر العصور . وتتميز جملة المثل ببساطة التركيب ، ووضوح المعنى ، وتنوع شكل التركيب ، بما يخدم أهداف النص ، وبما يساعد على تجسيد الصورة المطروحة . وهكذا يعتمد أسلوب الأمثال على اختيار الأصوات والكلمات والجمل التـى تتميز بالبساطة والوضوح والتنوع ، وهذا مما عمق قدرة الأمثلة الإقناعية ، ونحن نريد مجتمعا فاضلا يتخذ من هذه الأمثال عبرة.

ولم يكن نجاح الأمثال وليد المصادفة ، أو لمجرد كونها جزءا من كتـاب ينتسب إلى الحق سبحانه وتعالى، ولكن لتمتعها بعدة خصائص إقناعية توافقت معها أحداث النتائج العلمية الحديثة فى مجال الإقناع ، مما يؤكد على أن إيماننا المطلق بكتاب الله لم يكن موروثا بقدر ما هو نتيجة لاعتماده على عدة مداخل إقناعية ، تتسم كل منها بمجموعة من السمات التى توفر لها قدرة مستمرة علـى التأثير . وأمامى الآن كتاب الله ، أذكركم منه بما حواه من أمثال ضربها الله لنا فى خمس وعشرين سورة من سـور القرآن الكريم ، وبما يدور فى تسع وأربعين آية ؛ يقول الحق تبارك وتعالى ، داعيا إلى الأمثال :

- " ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا مـن قبلكـم وموعظة للمتقين" (النور٣٤)
- " ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شىء جدلا"(الكهف ٥٤)
- " ولقد صرفنا للنـاس فـى هـذا القـرآن مـن كـل مثـل فـأبى أكـثر النـاس إلاكفورا"(الإسراء ٨٩)
- " يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له" (الحج ٧٣)
- " ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون" (إبراهيم ٢٥)
- " ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا " (الفرقان ٣٣)
- " وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم"(الروم٢٧)

- " ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل (الروم ٥٨) . (الزمر٢٧)
- " ماذا اراد الله بهذا مثلا" (المدثر ٣١)
- " كذلك يضرب الله الأمثال"(الرعد ١٧)
- " وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال" (إبراهيم ٤٥)
- " فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون"(النحل ٧٤)
- " انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا" (الإسراء ٤٨) . (الفرقان ٩)
- " ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم" (النور ٣٥)
- " وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا له تتبيرا" (الفرقان ٣٩)
- " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون" (العنكبوت ٤٣)
- " وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون"(الحشر٢١)

أما سور القرآن الكريم ، التي تشتمل آياتها التي ذكرت عددها على المثل فهي كالآتي:

السورة:

١. البقرة . الآية ١٧. ٢٦. ٢٦١. ٢٦٤. ٢٦٥. ١٧١
٢. آل عمران . ٥٩. ١١٧
٣. الأنعام . ١٢٢
٤. الأعراف . ١٧٦. ١٧٧. ١٩٤
٥. يونس . ٢٤
٦. هود. ٢٤
٧. الرعد . ٣٥
٨. إبراهيم . ١٨ . ٢٤. ٢٦
٩. النحل . ٦٠. ٧٥. ٧٦. ١١٢
١٠. الكهف .٤٥. ٣٢
١١. النور . ٣٥
١٢. العنكبوت . ٤١
١٣. محمد . ٣. ١٠. ١٥. ٣٨
١٤. الحديد . ٢٠
١٥. الحشر . ١٥ ١٦
١٦ . الجمعة ٥

١٧. الروم. ٢٨
١٨. يس. ١٣. ٧٨
١٩. الزمر. ٢٩
٢٠. الزخرف. ١٧. ٥٦. ٥٧. ٥٩
٢١. التحريم. ١٠. ١١
٢٢. الفتح. ٢٩
٢٣. الواقعة. ٢٣. ٦١
٢٤. الأنعام. ٣٨
٢٥. الإنسان. ٢٨

(١)
(المنافقـــون)

وفى سورة البقرة تطالعنا الآية رقم (١٧) ، التى يقول فيها رب العزة فـى تشبيه معجز لمن وقع فى الحيرة والدهش، عندما يصور المنافقين وتخبطهم فى حياتهم:

" مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون".

هم المنـافقون . ولا يخـل مجتمع منهم . الذين نراهم فـى حياتنا يبيعـون الهدى ، ويشترون به الضلال ، فما كسبت تجارتهم وما اهتدوا مثل أولئك كمثل الذى أراد أن يوقد نارا ليستدفئ بها، ويستضئ فى يوم اشتد ظلامه وبرودته . مدخل إقنـاعى من خلال الواقع المعيش ، والمرتبط بالبيئة وما يستخدمه الإنسان من وسائل للدفاع عن نفسه وحمايته، ومن منا لا يشعر بحاجته إلى شيء يقيه مما قد يصيبه من أذى فى شدة يمر بها ، أو وقت عسير يصادفه ، فما أن يجد بغيته حتى تصبـح سـرابا ولا منجـى لـه إلا الله، كذلـك يضـرب الله الأمثال، لعل فيها منجاة لمواقفهم وشدائدهم ، كهذا المثـل الذى أمامنا حين أوقد الناس نيرانهم ليتزودوا منها، فما اتقدت حتى انطفأت وتركتهم فـى ليـل أليـل ، وجـو قـارس لا يسمعون ولا يتكلمون ولا يبصرون ، أو كأن مثلهم فى حيرتهم وترددهم ، كمثـل قـوم أصابهم مطر شديد أظلمت له الأرض وأرعدت السحب وأبرقت السماء فصاروا يجعلون أصابعهم فى آذانهم دهشا من الصواعق ، وهربا من الموت على تلك الصورة، والله محيط بـهم لا يفلتهم، يكاد البرق يأخذ أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا على نوره، وإذا عاد الظلام وقفوا حيث هم، ولو أراد ربك لأصمهم وأعمـاهم إن الله علـى كل شـيء قدير . صـورة مـن الواقـع المعيش يذكرنا به الحق تبارك وتعالى ، وهى ظاهرة لا يجهلها أحد ولكـن ينسـاها فـى خضم الحياة الصاخبة ، حتى إذا هم القضاء فلا بحر يقى ولا بر . من منـا لا يتذكـر يومـا كـان فيه زلـزال ، وهجع الناس من مضاجعهم، وخرجوا عن بكرة أبيهم يبحثون عن ملجأ يعصمهم من الخطر ، فلا عاصم اليوم من أمر الله إلآ من رحم ، ويوم تتقلب الطبيعة عن وجهها المشرق ، فتعبـس أو تقطب أو تغضب، ويقف المرء عـاجزا عـن أن يستخدم وسـائله التقنيـة والحديثـة فهى غـير مجدية أمام قوة الله ، فلا حيلة إذن سوى اللجوء إلى صاحب القـوى ، ولا حـول ولا قـوة إلا به، ومع ذلك فالمنافقون فى كـل مكـان وفـى كـل زمـان تضـج بـهم المجتمعات التـى تديـن بالدين الإسـلامى ، الديـن صـاحب الركـائز الخمـس ، التـى يرددهـا المسـلمون ترديـدا آليـا، وتراهم يتوافدون على الصلاة، ويتزاحمون عليها فى المساجد والطرقات ، وحتى فـى أمـاكن عملهم ، يتركون مصالح الأفراد ، لأنهم مشغولون بفرض الله، ونسـوا أن العمـل صـلاة وصيـام وزكـاة وحـج إذا مـا أتقنـه وأخلـص فيـه، وكـان أمينـا صـادقـا وفيـا مخلصـا ، ولكـن المنـافقين يتخذون من المظهر جلبابا يخفون خلفه نواياهم ومقاصدهم فلا ترى إلا غشا، ولا تسمع إلا كذبا، ناهيك عن الإيذاء والوقيعة، والتظاهر بما ليـس هـو أهلا لـه، وبمـا لـه مـن وجهين فلا

تعرف له وجهة ، ولايكون إلا مع من يجد عنده مأربه وحاجته، ورغم ذلك تراهم ينفقون المال في الحج والعمرة مرات ومرات، ويعودون لما نهوا عنه في حجهم وعمرتهم ، ولو أن هذا المال أنفق على المحتاجين لكان أجدى وأنفع ، فكفى المرء أن يؤدى الفريضة وأن يعمل بها ، لا أن يتظاهر بالتقى عن طريق الممارسة في غير ما فائدة، فكم من شباب يحتاج عونا ومساعدة ، عونا في البدء وفي المسيرة ليحقق الاسقرار الذى ينشده من حياته، وكم من عاجز لاستكمال متطلبات الحياة في حاجة إلى من يعينه ، وكم من شيخ وطفل يتيم وسائل محروم في حاجة إلى ما يكفل لهم حياتهم ، ليزيل عنهم شقاء وبؤسا وحرمانا وسؤالا ، يخفف عنهم قسوة الأقدار التى تعتبر من جنود الإيمان فبدونها ما كان طريقنا إلى الله، والحاجة من جنود الإيمان أيضا ، ويبصرنا الله إليها لنعرف أن في ذلك صلاحا لأمورنا ، وتزودا لحياتنا الآخرة.

وقد لعن الله المنافقين منذ العهود القديمة ، وأيام عصر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحتى زماننا وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها ، فهم في الدرك الأسفل من العذاب ، وهم وقود نار جهنم ولكنهم لا يعلمون.

ويظهر الله لنا في صورة الحشر وعود المنافقين ، ومناصرة الشيطان بقوله : " كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برئ منك إني أخاف الله رب العالمين" (الحشر١٥ - ١٦)

مثل يضربه الله في المنافقين . مثل هؤلاء اليهود كمثل الذين من قبلهم ، لم يلبثوا أن ذاقوا وبال أمرهم ، ولهم عذاب أليم. ومثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال ، كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر تبرأ منه قائلا : إني أخاف الله رب العالمين . مثل هؤلاء المنافقين الذين وعدوا اليهود بالنصر، كمثل الشيطان الذى غر إنسانا ووعده على الكفر بالله النصر عند حاجته إليه ، فكفر ، فلما احتاج إلى نصرته، أسلمه وتخلى عنه. أليس ذلك بواقع في عالمنا المعاصر ؟

إن المنافقين مكابرون، لا يأتون بخير في كل مكان ، ويقلبون الحقائق ، ولا يصدقون بما يسوقهم إلى الصراط ، حتى يصيبهم العذاب، فهذا فريق يخاطبهم الله

يقول " هو الذى يسيركم في البر والبحر"

نحن أمام مشهد يتكرر أمامنا ، حيث حركتنا في البر والبحر والجو نتحرك في البر على أرجلنا أو على مراكبنا من خيل وبغال وحمير ، وسيارات وحافلات وقطارات وطائرات في الجو وصواريخ ، وفي البحر على المراكب والزوارق والغواصات وما شابه ، ننتقل من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد، وفي القتال والحروب ، غير ناظرين كيف تجرى بنا هذه الأدوات والوسائل في حياتنا اليومية، ونحسب أننا نملكها ونملك السيطرة عليها ، وهى تجرى بنا بريح طيبة ، ونحن في غفلة من أمرنا ، إنها تجرى وتسير بقدرة الله وقوته، ولا نملك من الأمر شيئا ، ولذلك قل: " سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون" . ولنأخذ مشهدا من هذه المشاهد ننظر إليه ، ونعيه، فإذا نظرنا إلى الفلك تتحرك رخاء ، عليها أهلها فرحين مستبشرين،لأن الريح التى تسوقهم ريح طيبة ، وفي هذا

الرخاء الآمن ، وهذا السرور الشامل ، تحدث المفاجأة، وتتحول الريح الطيبة إلى ريح عاصف ، فيأتيهم الموج من كل مكان ، وتضطرب الفلك بمن فيها ، ويلاطمها الموج، ويدور بها كالريشة الضائعة ، وهؤلاء أهلها فى فزع يظنون ألا مناص ، فلا مجال للنجاة ، وفى وسط هذا الهول ، تنبض الفطرة السليمة بالتوحيد والرجوع إلى الله دون سواه، كل منهم يدعو ربه ، المؤمن والعاصى ، العابد والفاجر ، القاصى والدانى ، الكبير والصغير، الرجل والمرأة، الغنى والفقير، الأسود والأبيض ؛ كلهم فى آن واحد ينظرون إلى الله ويدعونه مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، والله يعلم أنهم منافقون ... وتهدأ العاصفة ، ويطمئن الموج وتهدأ الأنفاس اللاهثة، وتسكن القلوب الواجفة ، وتصل الفلك آمنة إلى الشاطئ ويوقن الناس بالحياة، وأرجلهم مستقرة على اليابسة.

هذا مشهد يذكرنا بما نراه كل يوم فى حياتنا ، ويتكرر فى كل مكان ، حيث تكون الحركة على الأرض ، أو فى البحر أو الفضاء ، وتتضاعف الحوادث ولا يرعوى أحد من النتائج ، فهم فى قوتهم وجبروتهم وطغيانهم ، حتى تقع الكارثة فيكون اللجوء إلى الله بغتة ، حتى إذا استجاب لهم ، وآمنهم من خوف ، عادوا إلى ما كانو عليه ، ولن يفلحو إذن أبدا...

ويتجدد أمامنا مشهد من مشاهد اللجوء إلى الله بالفطرة عندما يشعر المرء بأنه فى معزل عن كل شىء ، ولا منجاة له إلا بحبل الله من ضر أصابه يكشفه عنه ، أو سوء نزل به فى مكان لا أنيس به، فإذا مسنا الضر فى البر أو البحر أو الجو، ضل من تدعون إلا إياه، فماذا لو أنجانا الله من الكرب العظيم ؟ أيكون الجحود والكفران، أم الطاعة والإيمان؟ إننا معشر البشر نعرض عندما تعود لنا قوتنا، وعندما نشعر أننا فى مأمن من الأخطار ، وتعود لنا حاجتنا إلى التملك والسيطرة، ومن ثم الغطرسة والعنجهية، ونحن غفل عما إذا كانت الأمور ستسير وفق أغراضنا وشهواتنا ، من أجل ذلك يذكرنا الله فى آياته بأن ما كنا فيه من ضيق وهم وكدر يمكن أن يعاودنا، بل أشد منه وأقسى ، فيذكرنا رب العزة بقوله : " أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا علينا به تبيعا" (الإسراء ٦٩)

المشهد أيضا فى قلب البحر. وإذا كانت الآيات تركز على هذه المشاهد من هذا المكان بالذات ، فلأنه من أخطر وأصعب الأماكن التى يمكن أن يكون فيها الإنسان بمنأى عن مأمن يؤيه أو يالجأ إلى من يحميه ، من أجل ذلك جاء التصوير معبرا من خلال الفلك تجرى فى موج كالجبال ، والريح عاصفة شديدة تقصف ما تمر به ، موقف فى غاية الخطورة، والناس أبصارهم شاخصة إلى السماء ، يدعون ربهم أن ينجيهم برحمته ، وتمر عليهم اللحظات كأنها الدهر ، وكيف لهم أن يروا أنفسهم على الشاطئ ، وقد استعادوا أنفاسهم ، وتحسسوا مواضع أمنهم على الأرض؛ ويستجيب لهم الله وينالون بر الأمان ، فتهدأ نفوسهم وتقر عيونهم، ولكن سرعان ما يتحولون ، فلا يصدقون بالقدرة، وبما يجدون ، ويعيثون فى الأرض فسادا، ولو شاء الله لأهلكهم ولأغرقهم ، ولن يجدوا لهم نصيرا، وليس على الله بعيد.

هؤلاء الذين يكفرون بربهم، يتخبطون فى حياتهم، ويعيشون فى حيرة وقلق دائم، فلا تهنأ لهم حياة ، ولا يسعد بهم وقت.

(٢)
(أول الغيث قطر)

ضرب الله للمنافقين مثلا بالذى استوقد نارا ... وضرب مثلا لعجز الآلهة المدعاة من خلق الذباب " إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب" (الحج ٧٣).

يقول المنافقون : إن ضرب الأمثال هكذا بما فيها من تصغير لهم ،وسخرية منهم لا تصدر عن الله ،وأن الله لا يذكر هذه الأشياء الصغيرة كالبعوضة والذبابة فى كلامه :" إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون" (البقرة ٢٦)

إنهم يتعجبون من ضرب هذه الأمثال بالأشياء الحقيرة ، وما دروا أنه سبحانه وتعالى أراد بهذه الأمثال أن يدخل إليهم ، يريد بذلك إضلال من عميت بصائرهم عن أسرار الخالق فى أصغر مخلوقاته ، وهداية من صفت أفئدتهم فاستوت لديهم كبريات المخلوقات وصغرياتها فى الدلالة على الحق الذى يتطلبونه. على أن الذين يضلون بهذه الأمثال هم الفاسقون الذين ينقضون عهد الله المأخوذ عليهم بالإيمان به، ويقطعون ما أمر الله أن يوصله من الأقارب والإخوان فى الدين ، ويفسدون فى الأرض . فالله يضرب المثل ولا يمتنع عن أن يكون شيئا حقيرا، فمعظم النار من مستصغر الشرر ، وأول الغيث قطر ثم ينهمر ، وأن الناس مهما بلغوا من قوة العلم وتقدمه ، لم يستطيعوا أن يخلقوا روحا فى هذا الشىء الحقير ، بل إن هذا الحقير لو أصابهم ما استطاعوا أن ينجوا من أذاه. نحن نريد أن يقرر الإنسان عجزه فلا يتيه عربدا ، ولا يغتر بنفسه ، فلو أن شيئا أصابه بسوء لا يستطيع رده، ويكون اللجوء إلى صاحب القوى ، ومن ثم وجب التواصل والتراحم والتآخى ، وأن يقدر المرء لقدمه موضعها ، وأن يؤمن بأن الله لايمتنع عن ضرب الأمثال لعباده بأصغر مخلوقاته وأحقرها ليذكرهم بطريق النجاة، ويدلهم على مخرج لهم مما هم فيه من بغض وشحناء وفوضى لاتستقيم إلا بمثل هذه الأمثال .

إن مثل هذه الآية التى تحمل فى طياتها تلك المداخل من خلال ضرب الأمثال تدفع د س الدساسين ، وتبين الحكمة من ورائها ، وتحذر غير المؤمنين من عاقبة الاستدراج بها ، وتطمئن المؤمنين أن ستزيدهم إيمانا ، فالله رب الصغير والكبير، فى كل ما يطلق عليه صغير من حولنا ، وكل ما يطلق عليه كبير، فى العيش والعمل والمكانة، فقد سخر الصغير للكبير ، ولولا الصغير ما كان الكبير، وسخر الكبير للصغير ، ولولاه أيضا ما استقامت الأمور للصغير، فالإثنان مكملان لبعضهما البعض، ولا تنتظم حياة أحدهما دون الآخر ، وكل منهما شرط لإيمان الآخر.

والمعجزة فى خلق الصغير التافه ، هى ذاتها المعجزة فى خلق ما هو أكبر، ولو أنصفنا لقلنا إن المعجزة فى الأولى أشد وأقوى من الثانية . إن جاز هذا التفسير. فالشىء كلما دق وصغر كلما كان أشد حيرة فى أمره، وأكثر تطلبا لبذل الجهد فى معرفة أسراره، حتى أن الفيروسات إذا تضاءلت صارت أقدر على الفتك ، وحار فى أمرها الطب والعلم والدواء. إنها معجزة السر المطلق الذى لا يعلمه إلا الله ، والأمثال أدوات للتنوير والتبصير، فليس عيبا لأن تضرب الأمثال، وما من شأنه الاستحياء من ذكره ، والله يريد بها اختبار القلوب ، وامتحان النفوس.

إن الإيمان بالله يجعلنا نتلقى كل ما يصدر عنه بما يليق بجلاله ، لأن الإيمان يهب النور فى القلوب والتفتح فى المدارك . والله يطلق الابتلاءات والامتحانات تمضى فى طريقها ويتلقاها عباده ، كل وفق طبيعته واستعداده ، وكل حسب طريقه ومنهجه الذى اتخذه لنفسه، والابتلاء واحد ، ولكن آثاره فى النفوس تختلف ، بحسب اختلاف المنهج والطريق . الشدة تسلط على شتى النفوس ، فأما المؤمن فتزيده التجاء إلى الله ، وتضرعا وخشية ، وأما غير المؤمن فتزلزله وتزيده بعدا من الله ، وتخرجه من الصف إخراجا ، والرخاء يسلط على شتى النفوس ، فأما المؤمن فيزيده يقظة وشكر ، وأما غيره فتبطره النعمة ، ويتلفه الرخاء ، ويضله الابتلاء ؛ وهكذا المثل الذى يضربه للناس " يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا". كل ما أمر الله به أن يوصل فهو بينهم مقطوع ، وكل فساد فى الأرض فهو منهم مصنوع ، إن صلة هذا النمط من البشر بالله مقطوعة ، وهم ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، وإذا نقض عهد الله من بعد ميثاقه ، فكل عهد دون عهد الله منقوض.

(٣)
(بنك الله)

" من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له" (البقرة ٢٤٥)

الإنفاق فى سبيل الله واهب الحياة، وواهب المال ، والقادر على قبض الحياة ، وقبض المال، فليعطى الإنسان من ماله ابتغاء ما عند الله ، فيضاعفه له فى الدنيا والآخرة أضعافا كثيرة . هذا تكليف الإنفاق ، ودستور الصدقة والتكافل ، والإنفاق فى سبيل الله هو صنو الجهاد الذى فرضه الله على الأمة المسلمة ، وقد تكررت الدعوة إليه ... والصدقة تهذيب لنفس صاحبها ومعطيها ، وعمل نافع مربح لآخذيها ، ويصبح المجتمع عن طريقها أسرة يسودها التعاون والتواد والتراحم ، وترفع البشرية إلى مستوى كريم .. فتش عن الذين لا يمدون أيديهم ، وحاجاتهم للمال قصوى ليسدوا بها أمور دنياهم ، أرادهم الله هكذا ليكونوا جند الإيمان ، ولولاهم ما كانت الجنة ، ولا كان الثواب ولا كان العمل الصالح ، كم من بشر يعانون وهم مؤمنون ، وتراهم فى كل مكان ، فى البيت ، فى العمل، فى الطريق، فى دور العبادة ، ودور العلاج حيث المرضى يئنون من كل داء ، والأطفال يبكون من كل ضر، هكذا المجتمعات: قادرون ميسرون ، وسائلون محتاجون ، وما أراد الله ذلك إلا ليصلح أحوال العباد بعضهم ببعض ، من أجل ذلك وجه الدعوة إلى أصحاب النفوس القادرة، الضنينة بالمال ، فهى تحتاج دائما إلى من يذكرها ، فضربت لهم الآمثال كمدخل لتصوير الحقائق فى مشاهد ناطقة كيما تبلغ إلى الأعماق . ثم لينفق المال بعد ذلك فى كتمان حتى لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك ، ولا تمنوا بها " يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صداقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير" (البقرة ٢٦٥).

لا تنفقوا أموالكم كرها ورئاء ، أو لغير وجه الله ولأن يقال جواد أو صالح ، يبتغى الثناء والذكر تثبيتا لهم على إنفاق ذلك فى طاعة الله واحتسابا وعزما ، ولاتتبعوها بالمن والأذى، ولا تقدموا إلا ما هو طيب محمود ، وجودوا بخير أموالكم أنفقوها سرا فى موضع السر ، وعلانية فى موضع العلانية فى تجرد وإخلاص ونقاء. إن مثل الذين ينفقون أموالهم رياء وسمعة كمثل ريح فيها برد أصابت زرع قوم انغمسوا فى المعاصى فأهلكته ، فظلموا أنفسهم بارتكابهم هذه المعاصى " مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم " (آل عمران ١١٧).

إن مثل ما ينفقق هؤلاء فى حياتهم من عمل ، أو مال ، أو صدقة ، أو عون ومساعدة، لا يقبل منهم لأنهم يكفرون بأوامر الله ونواهيه: " إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا

أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" ، ومثل ما ينفقون كريح باردة شديدة تأتي على الزرع والحرث فتهلكه وتدمره ، بعد أن كان الإنسان ينعم به ويزهو، ولكنه ظلم نفسه ، وأساء إليها بعصيانه لربه. إن الله يضرب لهم المثل مما يسايرونه في حياتهم ، ومما يعتمدون عليه في معيشتهم ويرونه في صباحهم ومسائهم ، وأينما كانوا ، فهم يعتمدون على الزراعة، ويعيشون عليها ، ويحبونها كحبهم لأولادهم وأموالهم، فإذا كانت لهم بساتين من فاكهة ، وأزهار يمرون عليها فلا يجدون إلا ثمارا ناضجة وقطوفا دانية، ثم يأتونها بعد عشية وضحاها، فيجدون ما عملوا هشيما تذروه الريح الشديدة ، فتنحسر أفئدتهم ، وتضيق صدورهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون..

والعبرة في الإنفاق بالنية، لا بالحركة، فإن من بذل ماله لا يريد جزاء ولا شكورا بل لأن البذل واجب إنساني لا بد من أدائه ، لا يكون كمن يبذل ماله ليقول الناس عنه إنه كريم، أو ليتخذه وسيلة لنيل الجاه والسلطان ليذل عباد الله، ولابد للمنفق أن يكون مؤمنا بأوامر الله: افعل ولا تفعل، وألا يخرج عن حدود الله وطاعته.

إن في هذه الأمثلة دفعا للجماعة المسلمة، وتوجيها لها ، في عمل وحركة مستمرة، وما أحوجنا إلى هذه الأمثال في واقعنا المعيش وحيث القرن الحادي والعشرين، الذي يشهد هجرا وبعدا عن الواقع الذي يأمرنا به ديننا ، وقربا ووصلا بكل ما نهى عنه كل الأديان السماوية ، ولا يخفى على أحد ما يحدث في الساحة من تفكك وتعصب، وتسلط إلى جانب ما يرتكب من أخطاء تعد جرائم في كل الأعراف، وعلى ذلك فنحن في حاجة إلى الوعي والحياة لنعرف ماذا ينبغي أن نعمل، ولندرك حقيقة هذه الأمثال فنجمل الخير، ونقبح الشر.

إن المثل يعطي صورة موحية للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ، ولا ينفقونها في اللهو والعبث. كما نشاهد من صور في حياتنا. تنفق الأموال في وجوه لا خير فيها ، ووجوه تستحقها لتقيم حياتها فلا تجدها ؛ إنها صورة من صور الحياة الواقعية، ولو أدرك الإنسان العطاء من وراء ما يصنع في الوجوه المستحقة لعلم أنه هو الكاسب من وراء ذلك الإنفاق ... مثلهم كمثل صورة الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه ، ومن ثم كان الاتجاه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء فإن فيه نماء وزيادة.

وفي موكب الحياة النامية الواهبة يتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء ، إنه لا يعطي بل يأخذ ، وإنه لا ينقص بل يزاد، فما نقص مال من صدقة ، وتمضي موجة العطاء والنماء في طريقها ، على أن يكون العطاء بلا من ولا أذى ، ولا رغبة في الاستعلاء الكاذب وفي لفت أنظار الناس ؛ ولابد أن يكون التوجه لله بالعطاء على حبه ، وعلى ذلك يكون العطاء تهذيبا وتزكية وتطهيرا للنفس ، واستجابة للمشاعر الإنسانية ، وارتباطا بالفقير في الله وفي الإنسانية ، وتذكيرا بنعمة الله . والصدقة التي يتبعها أذى لا ضرورة لها ، وأولى منها كلمة طيبة وشعور سمح. كلمة طيبة تضمد جراح القلوب ، وتفعمها بالرضا والبشاشة، ومغفرة تغسل أحقاد النفوس ، وتحل محلها الإخاء والصداقة، وكذلك صور مشهد الزرع والنماء طبيعة الإنفاق الخالص لله: " مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة " (البقرة ٢٦١) .

المال مال الله ، وأن الرزق فى أيدى الأغنياء وهو رزق الله، وهى منحة من الله لا يقدر الإنسان منها على شىء ، فإذا أعطيت من مالك شيئا ، فإنما من مال الله أعطيت ، وإذا أسلفت حسنة فإنما هى قرض لله يضاعفه له أضعافا كثيرة، ولنعد لقول الله:" من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط و إليه ترجعون " . أن يعطى من ماله ما أمر الله به، وفى ابتغاء ما عنده ، أو ينفق فى سبيله فيضاعف الله ذلك فى الدنيا والآخرة ، وليس الآخذ إلا أداة وسببا لينال المعطى الواهب أضعاف ما أعطى من مال الله ، فلا يستعلى معط ولا يتخاذل آخذ ، فكلاهما آكل من رزق الله ، والفقير شرط فى إيمان الغنى.

شرائح عديدة تحتاج إلى البذل والعطاء: دور الأيتام ، والمعاقون وذوى الحاجات الخاصة، الأرامل الذين حرموا عائلهم وفقدوا ناصرهم ، عفيفو النفس ، الشيوخ ومنظمات وجمعيات غير حكومية خيرية تقوم بأعمال تطوعية فى خدمة الإنسانية ، شرائح عديدة فى المجتمع تحتاج إلى الوقوف بجانبهم ومساعدتهم عن طريق المؤسسات ، والجمعيات الخيرية التى تتبنى هذه الأعمال الإنسانية ، فالدعوة إلى المحسنين الذين لا يبخلون بأموالهم وبصدقاتهم، وينفقونها فى سبيل الله ، وفى سبيل التعاون والإخاء والترابط فى المجتمعات ليتحقق التكافل والتعاون.

هى دعوة إلى بذل المال فى السبيل المؤدية إلى الله من عمل البر والإحسان ، مثلهم كمثل حبة زرعت فأنبتت سبع سنابل ، والله يزيد ما يشاء إنه واسع عليم.

من ذا الذى لا يريد أن يزداد ماله وينمو؟ وأن يربح من تجارة أو بيع وشراء تحت شعار " المال يدعو المال" ؟ أدلك على باب لو قصدته وجدت فيه بغيتك، واهتديت إلى ضالتك.. أنفق وتصدق مما وهبك الله، وأحسن وابسط يدك للخير لإخوانك المحتاجين فى الشدائد، فهم كثر " إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم" (التوبة ٦٠).

واعلم أن الإحسان شيمة المؤمنين العابدين الذين وصفهم الله بأنهم من المحسنين ؛ هذه هى السيدة عائشة أم المؤمنين تفرق مائة ألف درهم فى يوم واحد، وهذا عبد الله بن عباس ، يأخذ بيد الناس ويخرج ما يماثل ذلك، والليث بن سعد ، منعت منه الزكاة رغم أن دخله كبير، لأنه يتبرع بكل ماله ، والشافعى يعطى كل من يدخل عليه حتى فرغت دنانيره، ولم يتبقى له شىء، وعثمان بن عفان رضى الله عنه . الذى جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها و أحلاسها، وعبد الرحمن بن عوف الذى دفع أربعة آلاف درهم فيها ، مثل هؤلاء جميعا والذين ينفقون أموالهم رجاء الحصول على رضاء الله وتثبيتا لبعض أنفسهم على الإيمان ، مثلهم كمثل روضة فى مكان مرتفع نزل عليها مطر غزير فآتت أكلها وثمراتها ضعفين، فإن لم يصبها مطر غزير كفاها المطر الضعيف لجودة معدنها ، والله بصير بما يعمل العاملون.

أما الذين لا يستجيبون لدعوة الله وينفقون أموالهم فى طرق لا حياة فيها ولا جدوى، فأولئك فى آذانهم وقر ، وعلى أبصارهم غشاوة ، وقلوبهم غلف ، ولقد ناديت لو أسمعت حيا،

والذين لا يسمعون هم لا يفهمون معنى الأصوات التى توجه إليهم ، كمثل الإنسان يدعو بهائم لا تسمع إلا اصواتا ، لا تفهم معناها . وإن كانت تعرف بالممارسة والتكرار. أما الذين يعرضون فهم صم بكم لا يعقلون أمورا من حولهم ، ويكفرون بكل دعوة خير من أجل صلاح الإنسانية " مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء"(البقرة ١٧١).

كم محتاج يتطلع لعطاء البشر إخوانهم . كم من مجاهد فى محنة وبلاء ، الصغير منهم والكبير، الشيخ والهرم من الرجال والنساء ، الرجل والمرأة الذين يبكون ، والذين يئنون ، الأيدى المرتعشة الهزيلة التى تمتد لتنال كسرة خبز، أو رشفة ماء ، والأرجل الحافية التى تطأ الرمال والصخور، والعيون الغائرة ، والقلوب الوجلة ، والنفوس الحائرة وهذا الركب ، وتلك الحشود التى لا تعرف مصيرها، ولا إلى أين يكون المساق؛ إذا لم تقدر على شىء فالإحسان بما نستطيع، وأهل الغنى يستطيعون أن يمسحوا دمعة ، ويطفئوا ظمأة ، وينصفوا أهل العذاب من الجبابرة العتاة.

إن الله يضرب لنا الأمثال لتكون لنا مدخلا للفضيلة، ولنعمل بما جاء فيها من حكمة ورشاد، فعن الخوف من ضياع المال وقسمته ، يظل الناس فى فقر دائم ، فهم من خوف الفقر فى فقر، يقول الحق تبارك وتعالى ممثلا المشركين الذين جعلوا له من خلقه شركاء فى عبادتهم ، وهم يقرون بأنها خلقة : هل لكم من عبيدكم شركاء فيما خولناكم (من نعمنا). فهم فيه سواء وأنتم ، تخافون أن يقاسموكم ذلك المال . الذى هو بينكم وبينهم . كخيفة بعضكم بعضا أن يقاسمه ما بينه وبينه من المال شريكة: " ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون" (الروم ٢٨).

ضرب الله لكم مثلا من أنفسكم ، هل لكم من مماليكم شركاء فى أموالكم ، فأنتم وهم سواء فى التصرف فيها ، تخافون منهم الاستبداد بالتصرف فيها، كما تخافون أنفسكم ، أى كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض.

(٤)

(ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة)

إن هذا الخلق هين يسير على الله؛ " يشهد بذلك كل من على الأرض " . " ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله" (السجدة ٤) ، وخلق الإنسان أيسر من خلق السماوات والأرض " لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس" (غافر ٥٧)، بل وخلق كل شيء ، ومن ثم فالبعث كالخلق لا مراء فيه... فلينظر الإنسان وليتدبر وليكن له في ذلك عبرة، يتخذ منها طريقا للصراط ، فيعرف موضع أقدامه ، ويسير به ركب الحياة إلى الخير في الدنيا والآخرة .. وكم من آية تخبرنا خبر اليقين عن الخلق والبعث ، فالله يقول : " أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا" (مريم ٦٧) يدعوه أن يتذكر كيف كان خلقه، فإذا أدرك فليعلم قول الله تبارك تعالى : " ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة" (لقمان ٢٨) . فمسألة الخلق نحن ندركها ونشهدها ، تمر بنا في كل لحظة لتبصرنا بالقدرة الإلهية،خلق من طين ، وخلق من نفس واحدة ، من أب وأم ، ومن أم بلا أب، هذا خلق آدم عليه السلام، وخلق حواء ، وخلق عيسى . عليه السلام . بلا أب . وأمرت مريم بنت عمران فبشرت بكلمة من الله . اسمه عيسى بن مريم . وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين. مريم التي حفظت نفسها من عبث الرجال بكرامتها، فنفخ الله فيها من روحه ، وصدقت بكلمات ربها ، وكتبه وكانت من المواظبين على الطاعة .. مريم التي اصطفاها الله على نساء العالمين ، تسأل ربها : أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر، قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون. وعيسى كآدم خلق من تراب، ثم قيل له كن بشرا سويا فكانه، غير أن خلق آدم كان بلا أم أو أب ، فحاله أغرب من عيسى ، وأدعى لإظهار قدرة الله.

جادل ابن الزبعرى، رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له : إنك تقول : إنكم وما تعبدون حصب جهنم ، فيكون عيسى في جهنم أيضا ، فضج المشركون فرحا لظنهم أنهم قد لزمته الحجة، وغاب عنهم أن (ما) لغير العاقل فلا تشمل عيسى . وقالوا : أآلهتنا خير عندك أم عيسى ؟ فإن كان في النار فلتكن آلهتنا معه، وما ضربوه مثلا إلا طلبا للجدال، فما هو إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة، وجعلناه مثلا لبني إسرائيل ، يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الزخرف (٥٦. ٥٩) " ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل".

يجدوا أمامهم منه شيئا ، ذلك هو الضلال البعيد: " للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل فمن جادل في ذلك فلعنة الله عليه ، والذين يكذبون بآيات الله مثلهم كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، " فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث" (الأعراف ١٧٦) وهو مثل ضربه الله لمن عرضت عليه آيات الله فأبى أن يقبلها ، فهذا التارك للإيمان بآيات الله التي كان أوتيها ، لا يترك ما هو عليه من خلافه لأمر ربه ، وعظ أو لم

يوعظ. وكما زين للمؤمنين إيمانهم، زين للكافرين ما كانوا يعملون: " أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون" (الأنعام ١٢٢) فليس الكافر كمن هداه الله ، وليس من كره إليهم الإيمان كمن آمن، فهذا أمية بن الصلت كان قد قرأ الكتب، ورأى قرب ظهور نبى ، فتوقع أن يكون هو، فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، يئس ولم يؤمن به، فهو فى الضلال والهلاك. أليس بعثكم يوم القيامة بالأمر الهين ، كخلق نفس واحدة وبعثها ؟ إنما قوله فى القليل والكثير " كن فيكون" . خلق وأمات فأحيا كمشاهد يبصرها الذين لا يؤمنون، فهل تكفرون بهذا اليوم، وأنتم فى الطغيان تهيمون ، وعلى الأرض وفيها تفسدون ، وحكم الجاهلية تبغون؟ فوربكم لتبعثن مثل ما أنكم تنطقون ولترون ما كنتم تكذبون ، ما لكم تعبدون عبادا أمثالكم ، نادوهم يوم الحشر فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . لقد استخدموا جوارحهم فى قضاء مصالحكم على حساب حاجات غيركم من المخلوقات ، أظهروا فى الأرض قدرتهم وعزتهم ، ونسوا قدرة الله وعزته ، وصاروا يقلبون الموازين ، ولا يقيمون حقا فى أرض الله ، ساء ما يفعلون نسوا أن الحياة الدنيا قلب " يوم لك ويوم عليك" ؛ " إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" (يونس ٢٤) . حياة قلب فى تقلبها سرعة مثلها كمثل ماء أنزله الله من السماء فنما بسببه نبات الأرض واختلط بعضه ببعض مما يأكله الناس والبهائم من الزروع ، حتى إذا بلغت الأرض غاية زينتها بمختلف النباتات، وخيل لأهلها أنهم متمكنون من حصدها ، والتمتع بثمارها ، ضرب زرعها ما يجتاحه من الآفات ليلا أو نهارا ، فأصبح الزرع شبيها بما حصد من أصله، كأن لم يكن موجودا بالأمس.

وهكذا الحياة تغر من يفتن بها ، ثم ما هى إلا ساعة ويزول كل شىء، ويكون الملك لله ينعم عنده الذين اتقوا ربهم فى الحياة الدنيا بنعيم مقيم فى جنات أعدها لهم ، تجرى من تحتها الأنهار، أوتجرى تحتها الأنهار ، ثمرها دائم وظلها كذلك ، فقد كانوا يخشون ربهم، ويخافون عذابه، ويرجون رحمته، لهؤلاء مقعد صدق فى جنة النعيم، جنة وارفة الظلال، ولهم فيها ما يشتهون ... أما الفريق الآخر، فأعمالهم مثل رماد هبت عليه ريح عاصفة ، فذهب كأنه لم يكن ، فلن السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم" (النحل ٦٠) ، " مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان؟ " (هود ٢٤) فريق من المؤمنين، وفريق من الكافرين لا يستويان.

فالناس فى الأرض آمنون مطمئنون ، رزقهم فى السماء وما يوعدون، فيكفرون بنعم الله ، ويشوب صفاء أهلهم كدر منهم ، متمثلا فى الجور والعذاب البئيس الذى يجدونه أينما يولوا وجوههم ، فقد أذاق أمثال هؤلاء ألم الجوع والخوف بما كانوا يعملون .. فالصلاح الصلاح فى العمل ، والصدق الصدق فى القول ، والعدل العدل فى القضاء، ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا هو أقرب للتقوى ، واعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن البعث

كالخق، وأن عذاب ربك لواقع ماله من دافع .. فتزود للآخرة ففيها عذاب شديد لمن كفر ، ورضوان لمن آمن، وما يأنس إلى هذه الحياة الدنيا إلا رجل لعب بعقله الغرور ، وهذا حال من ينكر البعث من قول الله عز وجل : " يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل غير مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج" (الحج ٥).

(٥)
(العدل أساس الملك)

إن الله جل شأنه يركز على صفة العدل فهو أساس الملك، وأساس الحياة الحقة السليمة، وأساس التعامل مع الآخرين، وهو الصنعة التي نفتقدها في تعاملاتنا ، ونحتاجها لنقيم ركائز مسيرتنا ، وحتى تستقيم الأمور فلا طغيان ولا ظلم.

فالمجتمع الفاضل يحتاج لهذا العدل ، ويحتاج لمن يأمر به ويطبقه، غير أن المجتمعات تلفظ مثل هؤلاء الذين ينادون بما أمر به الله،بل ويطلبون الخلاص منهم ، من أجل ذلك يطلب الله من نبيه أن يضرب لهؤلاء الذين سألوه أن يطرد من يدعو ربه بالغداة والعشى هذا المثل : " واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا.... (إلى آخر المثل) .. (الكهف ١٣٢) . رجلان أتى الله أحدهما بساتين من أعناب، وأحاطهما بنخل، وجعل وسطهما زرعا . كلا البستانين أعطى ثمره، ولم ينقص منه شيئا، وأتبع له فيهما نهرا؛ وكان للرجل أنواع من أموال أخرى ، فقال يوما لصاحبه مفتخرا عليه: أنا أكثر منك مالا وأعز حشما وأعوانا، ودخل بستانه وهو ظالم لنفسه بعجبه وكفره ، قائلا : ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبدا ، وتمنى صاحبه أن يمنحه ربه خيرا من هذه الجنة ، ويرسل عليها صواعق من السماء ، فتحقق ما قاله ، وأصبحت أرضا ملساء ، وغار ماؤها ، وهلك ماله، وأصبح يقلب كفيه على ما فعل ، وندم على جرمه ،. ولات حين مناص.

وضرب الله عبدا مملوكا ، عاجزا عن الكسب والتصرف ، ورجلا أغدق عليه رزق حسن، فهو ينفق منه سرا وعلنا، هل يستويان؟

كما ضرب مثلا رجلين أحدهما أخرس ، ولا يقدر على شيء من الأعمال لنقص قواه العقلية، وهو عالة على ولي أمره، إلى أي جهة يرسله لا ينجح، هل يستوي هو ورجل تام العقل ، ذو فهم وكفاية ، يأمر بالعدل والإحسان، وهو على صراط مستقيم : " ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون" (النحل ٧٥). رجل لا يأتي بخير ولا يعمل بطاعة الله ؛ ورجل يعمل بعلم الناس ، وبغير علم ،لا يستويان.

وفي السياق الآخر يقول تعالى :" وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مسقيم " (النحل ٧٦)

قول " لا إله إلا الله " ثابت فى قلب المؤمن ، يرفع به عمله إلى السماء ، وقول الباطل لا يقوم له أصل ولا برهان ، ولا يرتفع معه عمل إلى الله عز وجل ، ويضرب الله المثل على ذلك: " ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء " (ابراهيم ٢٤) . " تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم

يتذكرون " (ابراهيم ٢٥). " ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار " (ابراهيم ٢٦) .

ألم تر يا محمد كيف ضرب الله لكم مثلا للكلمة الطيبة، والكلمة الخبيثة؟ الكلمة الطيبة كشجرة زكية نامية ، أصلها راسخ في الأرض، وأعلاها في السماء ، تؤتي ثمارها كل حين صيفا وشتاء ، بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل الكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة استؤصلت لعدم نفعها ، وضرر وجودها من فوق الأرض، ما لها من استقرار .

وتأخذ الأمثال في العرض كمدخل لإنارة الطريق لمن أراد نورا يهتدى به، فلن يجد له وليا ينفعه إذا حاد عن الطريق ، ولا شفيعا يشفع له إلا بإذن الله ، وأنى لنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي شيد بالتأييد، وحف بالعصمة، يقول: أفلا أكون عبدا شكورا، وقد غفر الله

له ما تقدم وما تأخر، ولكنه يشكر ويحمد ويعمل ليكون أسوة لعباد الرحمن . محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكافرين ، رحماء بينهم ، تراهم راكعين ساجدين ، يطلبون فضلا من ربهم ورضوانا ، علامة السجود في وجوههم ، ذلك وصفهم في التوراة والإنجيل، كزرع أخرج فراخه فقواه، فاستحال من الدقة إلى الغلظة ، فاستقام على سوقه، يستدعي إعجاب الزراع به، ليغيظ الله بهم الكفار؛ وعد الله الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات مغفرة وأجرا عظيما : " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما"(الفتح ٢٩).

وقد مثلهم الله بالزرع المشطىء لأنهم ابتدأوا في الدخول في الإسلام وهم عدد قليل ، ثم جعلوا يتزايدون ، ويدخل الجماعة بعد الجماعة، حتى كثروا وقووا، كما يحدث في أصل الزرع بالفرخ منه، ثم الفرخ حتى يكثر وينمي. إن الله فعل ذلك بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، ليغيظ بهم الكفار.

والذين كلفوا العمل بالتوراة وما جاء بها ، والقيام على صراطها ، ولم يرفعوا بذلك رأسا ، ولم يقوموا بما عهد إليهم من ذلك.... مثلهم كمثل الحمار يحمل على ظهره كتبا ينقلها من مكان إلى مكان، وهو لا يدري ما فيها من كنوز المعارف ، ومعين الحياة الصحيحة ، فبئس الذين يكذبون بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين: " مثل الذين حملوا التوارة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين" (الجمعة ٥).

إن الذين اتخذوا لهم من دون الله نصرا، في الاعتماد على ما لا يصح الاعتماد عليه، كمثل العنكبوت اتخذت لنفسها بيتا وهو من الوهن والضعف بحيث لا يحتمل أن يلمس

بالإصبع : " مثل الدين اتخدوا من دون الله أولياء ، كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون" (العنكبوت ٤١).

وفى عدم نفع الشفاعات لمن لا يستحقها ضرب الله مثلا بامرأة نوح ، وامرأة لوط، فقال تعالى : " ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذا قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين" (التحريم ١١.١٠) . كانت امرأة نوح تفشى سره ، وسر من آمن به إلى الجبابرة من قومه، وامرأة لوط كانت تدل على ضيفه ، وكان ذلك خيانتهما لنوح ولوط فى الدين، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا، ولم يغن نوح ولوط عن امرأتيهما شيئا من الله إذ عاقبهما ، وقيل لهما ادخلا النار مع الداخلين يوم القيامة (وهنا مثل الله حال الكافرين فى أنهم يعاقبون بكفرهم ، ولا يحابون بسبب قرابتهم من النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن المؤمنين) ومثل الله حال المؤمنين فى أن اتصالهم بالكافرين لا يضرهم ، بحال آسية، امرأة فرعون ، إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من القوم الظالمين" ومريم بنت عمران، حفظت نفسها من عبث الرجال بكرامتها ، فنفخ الله فيها من روحه، وصدقت بكلمات ربها وكتبه، وكانت من المواظبين على الطاعة ، فمن الناس من ينصرف عن الهدى إلى الضلال ، ومنهم من يعبد الله ، ولا يتخذ معه أحدا غيره، فالذين جعلوا لله من عباده جزءا . أى اعتمدوا على غير الله . فادعوا أن له ولدا ، وأن الملائكة بناته، فهل اتخذ مما يخلقه بنات واختص الناس بالبنين ، وهم إذا بشر أحدهم بأنثى ولدت له صار وجهه مسودا من الغم : " وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم" (الزخرف ١٧).

(٦)
(وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون)

ليعلم الناس أنما الحياة الدنيا فـي أكبر شئونها الجدية، هـي فـي الواقع لعب ولهـو وزينة، وتفاخر بالأحساب والأنساب وتكاثر فى الأموال والأولاد ، مثلـها كمثل غيث نزل من السماء فأحيا الأرض ، فصار يعجب الكفار نباتها ، ثم يبس واصفر ، ثم استحال إلى هشيم تذروه الرياح، وفى الآخرة عذاب شديد لمن كفر ، ورضوان لمن آمن ، وما يأنس إلى هذه الحياة إلا رجل لعب بعقله الغرور : " اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينـة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" (الحديد ٢٠) .

ويضرب الله الأمثال للناس ليبين لهم أن مثل الحياة الدنيا فى سرعة زوالها بنبات نما والتف بعضه ببعض بسب ماء نزل عليه من السماء ، فما لبث أن صار هشيما تثيره الرياح ، فكل شيء لزوال ، وكل الذى فوق التراب تراب: " واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا " (الكهف ٤٥) . ويختار المثل النبات والشجر ، والسماء والماء ، وكلها عناصر مما يستخدمه الإنسان ، وما يشاهده حوله أينما وجد، وهو مستمد من البيئة ، ومن الحياة المعيشة، وصالح لكل عصر وكل ثقافة، ولا يحتاج الإنسان بعدها أن يقيم دليلا آخر على صدق هذه الأمثال . ثم يدخل المثل بعد ذلك إلى العقل فيخاطبه : " أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها" . أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم ، استأصل الله ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، وللكافرين . فى كل مكان وزمان " مثل ما دمرت به القرون الأولى ، وعيد من الله لهم، الذين كفروا ومنعوا الناس عن سبيل الله ، وأبعدوهم عن الإسلام، أحبط الله ما عملوه من حسنات فى دنياهم ، وأما المؤمنون فمحا عنهم ذنوبهم ، وأصلح حالهم، ذلك بأن الكافرين اتبعوا الباطل ، والمؤمنون اتبعوا الحق، كذلك يبين الله للناس أحوالهم: " ذلك بأن الكافرين اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم" (محمد ٣) . الذين اتبعوا الحق من ربهم ، وعدهم ربهم وعدا حسنا ، بجنة فيها أنهار من ماء غير متغير طعمه ، ولا ريحه ، وأنهار من خمر لذيذة للشاربين وأنهار من العسل مصفى، ولهم فوق هذا من كل الثمرات ، ومغفرة من ربهم ، كمن هو فى النار وسقوا ماء حارا فقطع أمعاءهم : " مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم " (محمد ١٥).

فإن أعرضتم عن الدين فسيأتي غيركم ، يقومون مقامكم ، ثم لا يكونوا أمثالكم في التولي والزهد في الإيمان، ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن القوم الذين يقيمهم الله مقام العرب . وكان سلمان الفارسي . بجانبه ، فضرب فخذه وقال: هذا وقومه : " هأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن بخل فإنما يبخل على نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم" (محمد ٣٨).

فالمتقون الذين يخشون ربهم ، ويخافون عذابه ، ويرجون رحمته فالجنة مآلهم، لهم فيها مقعد صدق وهي حياتهم التي يستمرون فيها ولا تفوتهم ولا يفوتونها جنة وارفة الظلال ، مليئة بالثمار تجري من تحتها الأنهار ، ولهم فيها ما يشتهون : " مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار" (الرعد ٣٥). إن الذين تستمسكون بهم في حياتكم الدنيا ، لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا ، ولا يقدمون لكم إلا ما كتب لكم وعليكم . وتخبرنا الأمثال بصورة قديمة لمن كانوا بغير الله مستمسكين ، يقول الحق تبارك وتعالى : " إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين " (الأعراف ١٩٤). إنهم عباد أمثالكم فإن شككتم في ذلك فنادوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين بأنهم آلهة . ألهم جوارح يستخدمونها في قضاء مصالحكم ، والإحاطة بحاجات المخلوقات ؟ إنهم مماليك لربكم الذي أنتم له مماليك ، فإذا لم تؤمنوا فلن تقبل أعمالكم فهي كرماد هبت عليه ريح عاصفة ، فلا تجد لها أثرا لا في حياتكم ولا في أخراكم ، ذلك هو الضلال البعيد : " الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد" (ابراهيم ١٨).

والذين يؤمنون بحياتهم الأولى ، فيرتعون فيها بكل المقاييس، ولا يأبهون بأمر من الضمير الإلهي ، أو وازع من قلب خاضع للحق تبارك وتعالى، وأنساهم ذلك ذكر الآخرة ، ولقاء يوم الحساب ، فضرب الله لهم مثلا : قرية كانت آمنة مطمئنة . قيل هي مكة . كان أمنها أن العرب كانت تتغادر ، ويقتل بعضها بعضا، وأهل مكة لا يعرض ولا يغار عليهم قارة بأهلها لا يحتاج أهلها إلى النجع الرحلة لطلب الرزق . لا يشوب صفاء أهلها كدر ، يأتيها رزقها موسعا من جميع نواحيها ، فكفرت بنعم الله عليها ، فأذاقها الله ألم الجوع والخوف بما كانوا يعملون ، وبدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون"(النحل ١١٢)

ويضرب الله مثلا لبيان حال رجل موحد ، ورجل غير موحد ، بعبد يملكه شركاء متنازعون وعبد آخر يملكه رجل واحد، فهو خالص له فهل يستويان؟ مثل الله مثلا لمن يكفر بالله، الذي يعبد آلهة شتى، ويطيع جماعة من الشياطين ، وللمؤمن الذي لا يعبد إلا الله وحده ، فضرب الله مثلا للكافر رجلا فيه شركاء ، يقول هذا بين جماعة مالكين متشاكسين ، يعني مختلفين متنازعين، سيئة أخلاقهم ، وكل واحد منهم يستخدمه بقدر نصيبه فيه ، وملكه فيه ، ورجلا سلما خالصا، يعني المؤمن الموحد لرجل واحد ليس لأحد فيه شيء غيره ،

يعني : أن المؤمن لا يعبد غير الله ، ولا يدين لشيء سواه (يستويان مثلا) ، هل يستوي مثل هذا الذي يخدم جماعة شركاء سيئة أخلاقهم ، والذي يخدم واحدا لا ينازعه فيه منازع ، إذا أطاعه عرف له موضع إطاعته وأكرمه، وإذا أخطأ صفح له عن خطئه ، فأي هذين أحسن حالا وأروح جسما؟ : " ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون" (الزمر ٢٩).

وفي سورة (يس) يضرب الله لنا مثلا يقول فيه : " واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون" (يس ١٣) . واضرب لهم مثلا أهل أنطاكية بالشام إذ أرسلنا إليهم رسولين فكذبوهما فقويناهما بثالث، فقالوا : إنا إليكم مرسلون ، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، فهل كنتم ملائكة؟ وما أنزل الله من شيء من الوحي ما أنتم إلا تكذبون. قيل إن المرسلين هما" يوحنا وبولس" من حواريي عيسى ، وثالثهم هو شمعون، وإن الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى هو: حبيب النجار، من الحواريين أيضا . ذكر أن أهل هذه المدينة عزموا على قتل هؤلاء الرسل ، فجاء حبيب يسعى إليهم ويذكرهم بالله عز وجل، ويدعوهم إلى اتباع المرسلين، فقتله أهل المدينة، قال الله عز وجل : ادخل الجنة ، فدخلها فلما عاين ما فيها قال : " ياليت قومي يعلمون" .

هكذا حال الناس تأتيهم البينات ، ويستكبرون ، وحتى في عصور التقدم والرقي، إن جازت هذه التسمية، فإنهم أيضا مكابرون جاحدون ، أمهلهم رويدا فسوف يعلمون. أتكفرون بالله ، وتبعدون عن صراطه ؟ وقد هداكم سبلكم فتخاذلتم وتقطعت بكم الأسباب ، فكنتم من المكابرين الجاحدين، ألم نسمع لهذا المثل الذي يقول فيه المولى عز وجل: " وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم" (يس ٧٨) نزلت في أبي بن خلف، أتى إلى رسول الله عليه السلام ، بعظم حائل ففته بين يديه ، ثم ذراه في الريح ، فقال : يا محمد من يحيي هذا وهو رميم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، : الله يحيه ثم يميتك ، ثم يدخلك النار . ضرب لنا مثلا ونسي خلق الله من تلك النطفة ، فقال متبجحا: "من يحيي العظام وهي بالية نخرة ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، فكما أنشأها فهو يستطيع إعادتها ، وهو بكل أسلوب خلق عليم.

وهكذا تناولت " الأمثال " ومسيرتها في سور القرآن الكريم ، وآياتها وبينت أنها كانت بمثابة مدخل لكل ما أمر به الله ، ليكون نورا يهتدي به الإنسان في حياته ، ويسلك طريقا إلى الصراط المستقيم ، الذي ندعو إليه في صلواتنا ونحن نقيمها لدلوك الشمس إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا .

فليكن لنا من هذه الأمثال المدخل الطبيعي لتتبع ما جاء بها في جميع المجالات، وليكن توجهنا إلى الله ، إذا سألنا فلنسأله سبحانه وتعالى ، وإذا استعنا فلنستعن به جل شأنه ، فهو المستعان على كل شيء ولله المثل الأعلى ، وهو الكمال المطلق.

الفصل الثانى

(شمس القرآن فى سماء رمضان)

(٧)
(فضل شهر شعبان على العباد)

فضل الله تبارك وتعالى بعض الناس على بعض، في القوامة والجهاد والرزق ، يقول تعالى:

" الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض " (النساء ٣٤)
" فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة" (النساء ٩٥)
" وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما " (النساء ٩٥)
" والله فضل بعضكم على بعض في الرزق " (النحل ٧١)

وفضل بعض الرسل على بعض في قوله : " ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا" (الإسراء ٥٥)،ويقول تعالى : " ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين" (النمل ١٥) وكرم سبحانه بني آدم على غيرهم ، يقول تعالى : " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا" (الإسراء ٧٠) . ويفضل بعض الأكل على بعض ، يقول سبحانه : " وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" (الرعد ٤). وفضل بعض الأمكنة والأزمنة على بعض، وفضل بعض الأوقات على بعض وبعض الشهور على بعض ، ويدعو إلى التأمل في ذلك فيقول: " انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض " (الإسراء ٢١) ونقف عند تفضيل الله عز وجل لبعض الأوقات على بعض ، حيث جعل الله لهذه الأوقات أثرا في حياة الإنسان ، فمن هذه الأيام المفضلة ، شهر شعبان، ويلفت الرسول الكريم ، صلوات الله عليه وسلامه، نظرنا إلى أهمية هذه الأيام في حياتنا جميعا ، ويجب أن نقدم الشكر لله على فضله علينا ، ويكون الشكر أيضا بالصوم ، من أجل ذلك كان فضل الصوم في هذا الشهر عظيما، وهو تعبير إنساني عن النعم التي من الله بها علينا . والصوم يصعد بالروح إلى درجات عالية ، فتسمو على الغرائز الهابطة بها ، وتحررها من قيود الجسد الذي تتجاذبه المطالب المادية. والصوم نصف الصبر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يجعل الإنسان ملائكيا ، متعلقا بالملأ الأعلى ، تفتح له أبواب السماء ليناجي ربه، فيتقبل الدعاء . والله يبسط يده بليل هذه الأيام ليتقبل توبة المسيء ويبسط يده بنهار هذه الأيام ليتقبل توبة المخطيء ، ويقول هل من مسيء فأغفر له؟ هل من مخطيء فأعفو عنه؟ هل من محتاج فأعطيه ؟ وهكذا حتى يدعوه داع فيستجيب له؛ وإن تأخرت الاستجابة، فليس في تأخرها شك من تحقيقها فقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدعو ربه ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر، تطلبا للوحي فيما يختص بأمر القبلة، متشوقا لتحويلها من بيت المقدس ، إلى الكعبة المشرفة ، والله يراه وهو يردد وجهه في السماء فيجيبه تعالى

إلى طلبه ؛ وهكذا استجاب الله لدعاء نبيه ، بعد فترة من الوقت . وإن طالت . لكنه أعطاه ما يرضيه :

" ولسوف يعطيك ربك فترضى "

فلا يأس مع الدعاء ، وإن تأخرت الإجابة . وما دعاء الأنبياء لربهم إلا دليل على الإجابة الفورية ، فمن يقرأ سورة الأنبياء يجد استجابة الله لنداء أيوب وإسماعيل وإدريس وذى الكفل ، لأن دعاء الصالحين والأوابين والمستغفرين والشاكرين والحامدين مستجاب ، وما دعاء ذى النون ، وزكريا عنا بغريب ، وكذلك من أدخلهم الله فى رحمته ، وعفو الله تعالى عن كثير من المؤمنين الصادقين كبير، بل يبعث فى القلوب الأمن والطمأنينة . فشهر شعبان، هو شهر الأمن والأمان لما فيه من أمور إلهية ميزته ، وبينت قيمته ، فادعو ربكم ما استطعتم فى هذه الأيام ، أن يكشف الغمة وينصر الأمة المسلمة ، ويبدد مخاوفهم أمنا ، ويرفع راية القرآن، ولتكن أيامنا فى شعبان ، وفى غير شعبان ، مليئة بالطاعات ، ليغفر الله لنا ما تقدم من ذنوبنا وما تأخر ، وأن يستخلف فينا من عباده من يخشاه ويرعاه ، فذلك وعد منه للذين آمنوا وعملوا الصالحات : " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهن فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون"(النور٥٥)

(٨)
(" لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله")
(الحشر ٢١)

لشهر رمضان ورؤية هلاله ، تحتشد مواكب الرؤية في ديار المسلمين شرقها وغربها ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته" فإذا ثبتت الرؤية سرى مع الريح في أرجاء العالم ، فأسمع من به شوق ، ويهرع المسلمون ، كل المسلمين إلى المساجد وهم يشكرون ، ويحبرون أن بلغهم ربهم ما تمنوا ، بلاغا من بعد بلاغ،من السماء لجبهات المسلمين،وفي ضمير الأمة ، ورجالها المؤمنين، ارتبط الإيمان بهذا الشهر المعظم يحيا فيهم بمولده ، وتتداعى له ذكريات التجليات حافزة موجهة ملهمة ، وتتراءى أمام أعينهم مشاهد السابقين ومواقفهم نابضة بالحياة . فالأحداث والمشاهد والمواقف الكبرى في تاريخنا مرهونة بإيحاء أيامها التي يعرفها بها تاريخ الإسلام، وهي أيضا مرتبطة بأماكنها التاريخية ، يتجدد بها حضوره في وعينا وذاكرتنا ، وإن قدم عليه العهد. فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، - نبي القرآن ، ونبي رمضان - وصاحبه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه يسير يبلغ مكة ، يوم الفتح في عشر خلون من شهر رمضان ، السنة الثامنة للهجرة ، في عشرة آلاف مسلم ، وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنما - أهوى عليها - وتستقبل أم القرى النبي العائد ، وأصحابه ، ويدخل عليه الصلاة والسلام ، ويطوف بالبيت العتيق سبعا ويدخل البيت خاشعا ، وقام يصلي بالمسلمين في الحرم المكي ، ثم خطب فيهم ، وأمر بلالا فأذن فوق ظهر الكعبة ، وأعلى شعار المسلمين : " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله " وارتفع صوت القرآن ليأخذ مساره في قلوب الناس، وليهتدوا به في حياتهم على يد نبيهم - نبي القرآن - الذي يهدي للتي هي أقوم : " إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين " (الإسراء ٩) يهدي لكل مسألة ، ويهدي لكل حاجة هي أقوم لكل فرد، وكل أمة وكل جماعة، وكل دولة في جميع المناحي : الزراعة والتجارة والصناعة والعلم والعمل . في الاختراع ، وفي الاكتشاف ، وفي الطب والدواء وفي كل شيء يمكن أن يكون في حياتنا الدنيا ، وفيما يمكن أن يكون في الحياة الآخرة أيضا لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، فمن لا يهتدي بهدي القرآن ، لن يصل إلى التي هي أقوم.

لقد صدق من قال: إن القرآن كتاب هدى؛ وصدق قائل : وهو قرآن رحمة، وصدق القائل : وكتاب بشرى ، وصدق القائل : كتاب نور؛ ومع صدق هذا القول لا نترك الأصل الأصيل من المهمة الحقيقية . فالصفة والمهمة الأولى للقرآن هي أن القرآن تعليم وتبيان لكل شيء : " ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين" (النحل ٨٩). وأمر الله بالعلم والتخصصات أن يستفيدوا من مكنونات الله. تعلموا من الأمم أمثالكم ، أمة الطير ، وأمة النحل ، وأمة النمل، وأمة الحمام، وأمة الحيوان ، ومن كل أمة:

"وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء" (الأنعام ٣٨).

لابد أن يصلح بالقرآن كل شىء نزل على محمد. نبى القرآن. فى شهر رمضان، فاحتفالا بنزول القرآن على محمد فى هذا الشهر المعظم، لابد أن نصوم رمضان، ونطهر قلوبنا ونستفيد من القرآن: " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها " (محمد ٢٤). لتشرق عليها أنوار القرآن لنتذوق ونستنير بأنواره، وإذا كان الصوم تطهيرا لكل الجوارح، فهو أيضا احتفال بنزول القرآن، والاستفادة منه، فالله أكرم به العالمين جميعا، فأين نزل القرآن؟ بالنسبة للبشر نزل على قلب محمد، سيد البشر، وبالنسبة للمكان نزل، ففى غار حراء نزل أول كلام من القرآن، وكيف نزل؟ كان يتعبد النبى فى غار حراء، ويتصل بالله حتى جاءه جبريل، وسلم عليه، وبلغه من الله السلام، ثم قال له: اقرأ، قال محمد: ما أنا بقارئ، فضمه جبريل، حتى بلغ منه الجهد، وضمه ثانية وثالثة، وفى كل مرة يقول له: اقرأ، قالها ثلاثا، ولها فى كل مرة سر، بل أسرار لا يعلمها إلا الله.

إن جبريل من العالمين ... ومحمد رحمة للعالمين. فى ثالث مرة، وكأن محمدا صلى الله عليه وسلم، يستفهم عن شىء مفاجئ له، ويجيبه جبريل، كن قارئا باسم ربك ما يوحى إليك .. وهكذا كان ربه. وربه دون العالمين من البشر. معلمه من لدنه العلم، على حين تعلم البشر بالقلم فعلم محمد صلى الله عليه وسلم، علم من الذات الإلهية، ومن كان علمه من الله، أصبحت طاعته واجبة.

(٩)

(" أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا")
(النجم ٥٩. ٦٢)

. القرآن الكريم خلق . هكذا قالت السيدة عائشة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين سئلت عنه : " كان خلقه القرآن " . فالقرآن علم وتشريع وتربية ونظام، من أجل ذلك نريد أن يتربى أطفالنا . لا شبابنا . على هذا الخلق، وليستقيم النطق بألفاظه، فيخلق جيل يعرف لغته، ويعرف دينه .

ألم يعد بناء الإنسان على أرض الجزيرة العربية وما حولها وحدهم بعد أن كانوا متفرقين؟ ولم شملهم بعد أن كانوا عضين ؟ فلم تمت هذه المجتمعات لأن هناك شيئا خفيا وقويا يربطها ، فلا تضيع ، ويمسكها فلا تتهادى . إنه القرآن الذى يخافه الدانى والقاصى، ويعملون له مليون حساب ، ويحاولون هدمه، ولكن الله حافظه . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

نعم ليتعلم أبناؤنا آيات من القرآن الكريم منذ حداثة أعمارهم حتى تقوم ألسنتهم، وتصقل نفوسهم ، وتقوى عقولهم ، فلا تتردى ولا تتدنى ولا تترخص، ولا تحيف. فالقرآن له سياج يحفظه من أن يشقى أو ينزغ الشيطان إلى قلبه ، ولتخف حدة الصراع ، وتزول أسباب النزاع ، وترشد الحياة ، وتضئ النفوس إلى الرضا ، وتتحلى بالحياء منبع الفضائل ، فالإنسان الحيى يراقب الله فى السر والعلن ، فهو لا يداهن ولا يرائى ولا يخون ولا يكذب.

لابد من ربط أطفالنا بالقرآن ، فى بكارة الإحساس من أجل تقويم اللسان ، وإرواء الوجدان بأكرم السمات . إن ما يصيبنا فى عالمنا اليوم مرجعه إلى غيبة الدين عن الساحة ، والدين أخلاق وعلم ، واحترام الإنسان كيانا ومكانا ، وعقلا وروحا. وأن من قرأ القرآن سمت روحه ، وقويت نفسه ، وتجرد من الماديات ، وتعود على الصبر وضبط النفس . القرآن منهاج تدريب، وخطة بحث على الصبر والشكر والإيمان بالمثل العليا.

نحن أمة القرآن ، شعارنا المميز . لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . من قالها بصدق دخل الجنة ، فبهذا الشعار قوتنا وعظمتنا وتحليقنا على أجنحة النور فى آفاق الأكاسرة و الأباطرة.

نحن أمة القرآن نضبط به أحكامنا ، وسلوكنا ، وتعاملنا ، ضبطا ذاتيا ، وضبطا اجتماعيا، وبه فتحت بلدان وأمم وانتصرت قوى على قوى ، وهذا الفتح والنصر مؤرخ فى ضمير الأمة ووجدان شعوبها أجمع.

وإذا قرأت القرآن وجدت آيات وآيات، ووقفت على عبر وعبر ، فقد حوى كل شىء لآنه منهج ومعجزة ، وهذا ما يجعله هو هو فى كل العصور والأزمان ، وأسأل وأنا أقرأ القرآن أن الشهر الذى ذكره الله باسمه فى كتابه المكنون هو شهر رمضان ، ولم يذكر أسماء الأشهر

الحرم وذكرتها السنة ، وكذا لم يذكر أسماء أشهر الحج ، وذكرتها السنة . يقول القرآن الكريم: "الحج أشهر معلومات " (البقرة ١٩٧) ، وتذكر السنة أنها شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، للحج، وسائر الشهور العمرة ؛ وأما الأشهر الحرم فهى رجب وذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم. أما شهر القرآن والصوم ، فقد ذكر باسمه ، ألأن القرآن كان نزوله فيه؟ أم بدء نزول الوحى فجر ليلة القدر؟ أم هو مستهل تاريخ الإسلام؟ يقول الحق تبارك وتعالى : " شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن " أم لأن الصوم له أهمية ذاتية عند رب العالمين وهو الذى يجزى به؟ أم لأن يوم بدر، ويوم الفتح كانا فى شهر رمضان. فتقول الروايات : يوم بدر ويوم الفتح كانا فى رمضان الأول ، وفى السنة الثانية للهجرة ، والثانى فى السنة الثامنة ، أما يوم الفتح ، فبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم ، مكة يوم الفتح فى عشرة آلاف من جند الإسلام - حزب الله - وفتحت أم القرى قلبها للنبى العائد ومن معه من أبنائها المهاجرين ، وأصحابه الأنصار ، ولم يدر يومها قتال ، وكأنما عاشت أم القرى فى انتظار هذه اللحظة التاريخية لتحرر من أغلال الوثنية. وطاف الرسول عليه السلام، بالبيت العتيق سبعا وسط الجموع الحاشدة من الناس ، ثم ترجل ودخل البيت خاشعا ، وقام يصلى بالمسلمين.

لا أحد منا يذكر ما يمكن أن يقابل سبب ذكر اسم هذا الشهر، ولكن الذى نذكره أن هذا الشهر مؤرخ فى وعى العالم ، بالشهر العظيم المفضل عند الله ، والفرصة المواتية لكل مسلم لأن يأخذ مكانه مع الأوابين ، والمستغفرين التوابين والعابدين الطائعين ، المحسنين المسبحين الواثقين من قربهم من الله.

لقد أسقطت كل الشهور ، وحجبت ببديل له دلالته ومغزاه ، وعبرته ، فقد جمع العبادات كلها : الصلاة ، الزكاة ، الحج والشهادة وهى الأركان التى يقوم عليها الإسلام ، وتتعاقب مواكب الاحتفال بهذه الأركان فى كل يوم وليلة ، تقام لها موائد الرحمن ، وتنصب السرادقات ، وتعطل الشياطين ، وتعبأ أجهزة الأعلام - مسموعة ومرئية ومقروءة - لترسيخ هذا البديل ، الذى ما كنا لندركه ، لولا أن أدركنا به القرآن . ونظل ما بقينا أمة القرآن ، شعارنا المميز - لا إله إلا الله ، محمد رسول الله - شامخا فى أعلى مآذننا ، ودليل هويتنا الإسلامية ، وتاريخنا الإسلامى ، وضابطا لسلوكنا وتفاعلنا ، ومرددوا فى صلاتنا وصيامنا وزكاتنا وحجنا وشهادتنا ؛ وراسخا فى صدورنا وجوارحنا ، وعلامة إسلامية حينما وجد على مبنى أو كتاب ، أو نسيج أو حلية وحينما وجدنا على أى جنب كنا فى أرض الله.

(١٠)
(يوم بدر)

لقد كانت غزوة بدر الكبرى ، في السابع عشر من شهر رمضان ، في السنة الثانية من الهجرة ، عندما خرجت تجارة كبيرة من قريش قاصدة الشام، وعلى رأسها كان أبو سفيان، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين باعتراضها ، واستفز أهل مكة أبو جهل ، وصاح بالناس للذود عن عيرها وأموالها ، ولم يتخلف من أشراف قريش إلا . أبو لهب . وخرج النبى فى أصحابه من المدينة لثمان خلون من شهر رمضان ، فى سبعين بعير . وانطلق القوم مسرعين ، فيهم على بن أبى طالب ، وأبو بكر وعمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، يريدون أن يتعرفوا على أخبار أبى سفيان ، ومكة كلها قد خرجت للدفاع عن تجارتها ، ولم يزعزع ذلك من حماس المسلمين وجهادهم شيئا ؛ وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم نداء المقداد بن عمرو، وهو يقول : امض لما أراك الله ، فنحن معك ، ونادى سعد بن معاذ ، من الأنصار بمثل ما نودى به رسول الله: إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء ، فلا تخش شيئا، وسر بنا على بركة الله ، فانطلق محمد على بعيره ، وكان على مقربة من بدر ، وهو يقول : والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم.

ويبعث على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، إلى ماء بدر ، فأدرك محمد أن قريشا وراء الكثيب بالعدوة القصوى ، مابين تسعمائة وألف ، والمسلمون بين خمسة وثلاثمائة رجل : " يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون" (الأنفال ٦٥) . ويرى المسلمون مطرا أرسلته السماء ، فيسر لهم مسيرتهم إلى ماء بدر ، وبنوا حوضا فى هذا المكان استجابة لمشورتهم جميعا . والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبعة عشر خلت من رمضان ، ووسط الجمع رأس الكفر . أمية بن خلف . ، ويراه بلال فيصيح : لا نجوت إن نجا ، ويقتل أمية وأبو جهل بن هشام ؛ وتدور رحى المعركة : " إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان " (الأنفال ١٢) . " فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم" (الأنفال ١٧) .

علمنا فضيلة الأمام ، الشيخ محمد متولى الشعراوى ، . رحمه الله . أننا إذا وجدنا فعلا منفيا ، وآخر مثبتا ، فمعنى هذا أن الجهة منفكة، فالرسول صلى الله عليه وسلم ، مسك حفنة من التراب ورماها لكنها لم تنل من الجميع موضعا، فيكون الرسول قد رمى ، ولكن الله هو الذى أصاب الجمع بما رمى . هكذا يستجيب المؤمنون لداعى الجهاد ، لا يرهبهم بأس عدو ، وكثرته وتفوق سلاحه ، ولا يترددون ريثما يحسبون مخاطر المعركة ، وهكذا انتصرت القلة المؤمنة الصابرة فى بدر وأقرت فى العالم حضارة لا تزال ذات أثر عميق فى حياته ،

وهكذا تحددت موازين القوى من يوم بدر ، فى كل صراع بين حق وباطل . فانتصرت كتائب الفتوح البدوية جندا وسلاحا ، على أباطرة الرومان ، وأكاسرة الفرس ، وملوك العالم القديم ، وانتصر المسلمون ، والقرآن نور بصائرهم ، ووعيهم على ساحتهم ، وعلى كل الساحات . فبدر هى أولى جولات الصدام المسلح بينها وبين الجبهة القرشية ، ولم تأت فجأة، بل سبقتها نذر تعلن عن حتمية الحرب بين الحق والباطل ، حتى لا يهان صاحب حق، ولا تضيع حرمات أمة ، وتأمينا لحرية عقيدتهم ، من أجل ذلك درب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، جنده تدريبا من خلال خروجهم فى غزوات قصار، كما بعث سراياه لتجوب المنطقة ، ما بين مكة والمدينة ، فهى بمثابة دوريات استطلاع حتى تأتيهم أخبار العدو، ويتعرفوا على أحوالهم فستتبين لهم أمور القتال ، وبذلك يكون عليه الصلاة والسلام ، حزبا قادرا على خوض المعارك ، والجهاد فى سبيل الحق ، ألا إنهم حزب الله الذين خاضوا غزوة بدر الكبرى التى وجهت مجرى الأحداث ، وانتصر الحق وزهق الباطل .

وتأتى قضية ، غاية فى الأهمية ، هى قضية " الأسرى" لعلنا ندرك أعماقها ، ونتعلم مغزاها من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين تأمل أسرى بدر ، عندما سيق بهم إليه ، وقال: استوصوا بالأسارى خيرا، وكان قد نحى منهم صهره : " أبا العاص بن ربيع " ، وفرق الباقين بين أصحابه، وبقى أبو العاص عند المصطفى وقلبه مشدود إلى مكة ، فقد ترك هناك زوجه " زينب بنت محمد " ، مع صغيريهما " على وأمامة" حتى جاءت رسل قريش فى فداء أسراها . وبعثت " زينب بنت محمد" بقلادة لم يرها رسول الله فداء لزوجها ، فرق قلب الرسول للذكرى .

لقد كانت قلادة " خديجة " أهدتها ابنتها " زينب" يوم عرسها ، حين زفت إلى " أبى العاص بن الربيع" ابن خالتها " هالة بنت خويلد".

زينب ، بنت " خديجة"، كبرى بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الأربع ، يلتقى نسب زوجها من جهة الأب مع المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فيخاطب النبى أصحابه : " إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها مالها ، فافعلوا" ، فأطاعوا الرسول ، الذى أسر إلى صهره حديثا ، حنى له أبو العاص ، رأسه موافقا ، فلما عاد إلى مكة ، جهز زوجه لكى تلحق بأبيها ، فى دار الهجرة وفاء بوعده. ولقيت زينب عنتا فى طريق عودتها ، حتى استقبلتها دار الهجرة بترحاب بالغ، شابت فرحة اللقاء فيه ثورة الغضب لما أصابها عند خروجها من مكة. وعاشت " زينب " فى رعاية أبيها ، على أمل لم يغلبها عليه اليأس ، أن يشرح الله صدر أبى العاص للإسلام ، فيلتئم الشمل الممزق ، وانتظرت ليتحقق هذا الأمل الغالى؛ ثم لا يكاد الشمل يلتئم حتى يفرق بينهما الموت.

لم تكن غزوات الرسول ، ولا حروبه وسيلة من وسائل الضغط للعقيدة ، أو لنشر الدعوة ، فهو يدعو إلى الحق ، وينادى به ، والحق لا يسانده إرهاب ، أو طغيان ، أو ضغط؛ "لا إكراه فى الين قد تبين الرشد من الغى" (البقرة ٢٥٦) . ولكن خصوم الإسلام يستغلون هذه المواقف والمشاهد والغزوات والحروب ، ويصورون التفرقة فى الجنس والعنصر والدين

والعقيدة واللون ،وأن الإسلام قام على السيف فى الحروب الإسلامية حماية لدين الله، وما هو بذلك.

الغيورون على الحق ، والرافعون لراية الإسلام ، يرون فى غزوة بدر انتصارا للحق على الباطل، فاحتفوا بها ، لأن الله فتح بها القلوب الغفل ، فسمعت ورأت أن المسلمين لهم حماية ، فلا يسخرون لأغراض الطغاة ، ولم تعد الأرض تضيق عليهم بما رحبت ، فانتصرت رايتهم فى معركة بدر ، وهم بعيدون عن هذا النصر، ولم يتوقعوه ، حتى اطمأنت القلوب بنصر الله ، وستنتصر هذه الراية - فى كل المعارك - التى تظهر الحق ، ففى وسع كل مسلم أن يعبد الله حرا كريما، ويدعو إلى الله دعوة حرة كريمة ، فقد كان لهم فى بدر حماية للمستضعفين من الأقوياء ، وأمنا لهم ، واستقرارا ، وهذا هو معنى القوة إذا كانت وسيلة للأمن الذى تطمئن به النفوس فى حياتهم هادئين قادرين.

إن القوة المسلمة تتفوق فى الجانب المعنوى ، والعقدى ، لأنها نابعة من إحسان الظن بالله ، والثقة بالنفس ، وإحسان التوجه إلى الله ، فالنفوس الممتلئة بالله ثقة واتجاها لا بد منتصرة.

فما أحسن من تحيى المناسبات الدينية، والأحسن أن نحيا نحن هذه المناسبات ، أسوة وقدوة ، وعبرة لا تغيب؛ فما أغنى الإسلام أن يحيا بنا ، ولكن ما أحوجنا نحن أن نحيا بالإسلام . حسبنا الآن أن نعيش الإسلام تحقيقا إلى أن ييسر لنا الله أن نعيشه تطبيقا ، وإذا كان يوم بدر ، حدثا كبيرا ، فكفانا أن نتعلم منه أن النصر لابد يكون حليفا للحق، مهما اختلت الموازين .

الفصل الثالث

(من مقدسات الإسلام)

(١١)
بيت المقدس القبلة الأولى

من الشهور المفضلة للعبادة ، شهر شعبان، فيه ليلة النصف منه ، وهى ليلة مباركة ، تعددت أسماؤها ، وفيها تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة ، وقد رغبت السنة المطهرة فى الإكثار من العبادة فى هذا الشهر ، وخاصة ليلة النصف ، أعظم ليالى العام بعد ليلة القدر . ومن أسمائها : الليلة المباركة ، وليلة القسمة ، وليلة تكفير الذنوب ، وليلة الشفاعة وليلة البراءة، وليلة الجائزة، وليلة الغفران، والعتق من النار ، وليلة الرجحان؛ وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى. يقول صلى الله عليه وسلم ؛ : " أربع لياليهن كأيامهن، وأيامهن كلياليهن : ليلة القدر وصيامها ، وليلة النصف من شعبان، وليلة عرفة وصيامها ، وليلة الجمعة وصيامها". وفى إحياء ليلة النصف من شعبان يتداعى إلى الأذهان كل ما هو عظيم وجليل ، ويظل الرسول صلى الله عليه وسلم ، المثل الأعلى للبشرية ، لكل الناس ، لشخصيته التى لم ينجب الزمان مثيلا لها ، من أى وجه نظرت إليها ، أعجبت بها ، ولذلك فهو الكمال البشرى مجسدا ، وهو القدوة لكل فئات المجتمع على اختلاف مواقفهم وأعمالهم.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، يتشوق لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم، والأمة الإسلامية هى الوارثة لإبراهيم وإسماعيل، ولعهد الله لهما فطبيعى أن ترث بيت الله الحرام بمكة ، وأن تتخذ منه قبلة لأنه بيت الله، ولأن ذلك أدعى إلى إيمان العرب ؛ وتطلع المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقوة يقينه يجعله يتطلع إلى ما يظنه خيرا ، ويعتقد أن فيه الرضا والرضوان ، ولذلك أجابه الله إلى طلبه، وقال :" فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام" (البقرة ١٤٤) . ويقول الله تبارك وتعالى ، لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما أمرناك أن تولى وجهك فى صلاتك شطر بيت المقدس، إلا لتختبر الناس هل يطيعون الله فى صرفهم من قبلة آبائهم وهى الكعبة ، أم يعصونه تعصبا لما ألفوه ؟ وإن كانت هذه التولية كبيرة صعبة إلا على الذين هداهم الله ، واختارهم لطاعته : " وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم " (البقرة ١٤٣) .

ويذكر لنا كعب بن مالك ، قصة فى هذا الصدد يقول :" خرجنا معنا البراء بن معرور ، سيدنا وكبيرنا من المدينة فى سفر . قال البراء لنا : ياهؤلاء إنى قد رأيت أن أصلى إلى الكعبة ، فقلنا والله ما بلغنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم ، يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه ؛ فكنا إذا حضرت الصلاه صلينا إلى بيت المقدس، وصلى إلى الكعبة، حتى قدمنا مكة ، فطلب البراء أن أنطلق به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى نسأله عما صنع فى سفره هذا ، فقد وقع فى نفسه منه شيء فخرجنا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنا لا نعرفه . ولم نره قبل ذلك . فلقينا رجلا من أهل مكة فسألناه عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، فقال هل تعرفانه؟ فقلنا لا . قال : هل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قلنا نعم ، فهو لا يزال يقدم علينا تاجرا . قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس ، فدخلنا المسجد ، فإذا العباس جالس ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، جالس معه فسلمنا ثم جلسنا إليه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، للعباس : هل تعرف هذين الرجلين ياأبا الفضل ؟ قال نعم : هذا البراء بن معرور ، سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك ، فوالله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، : الشاعر قلت : نعم ، فقال له البراء بن معرور : يا نبي الله إني خرجت في سفري هذا ، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن أن أصلي إلى الكعبة ، وقد خالفني في ذلك ، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء . فماذا ترى يا رسول الله؟ قال : قد كنت على قبلة لو صبرت عليها . فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلى معنا إلى بيت المقدس . وهكذا كانو يصلون إلى بيت المقدس طاعة لأمر الله ورسوله ، وليعلم الله الصادقين . ثم يقول الله لمحمد صلى الله عليه وسلم ، بعد ذلك ، إننا نرى يامحمد تردد وجهك في السماء تطلبا للوحي فيما يختص بأمر القبلة ، فلنوجهك إل قبلة تحبها ، قبلة أبيك إبراهيم ، فول وجهك جهة المسجد الحرام ، وفي أي جهة كنتم فولوا وجوهكم جهته ، وإن أهل الكتاب ليعلمون أن هذا التحويل هو الحق.ولكن اليهود ضاقوا بمحمد ذرعا ، ففكروا في أن يمكروا به ، وأن يقنعوه بالجلاء عن المدينة ، كما أجلاه أذى قريش إياه، وأصحابه عن مكة ، فذكروا له أن من سبقه من الرسل ذهبوا جميعا إلى بيت المقدس ، وكان به مقامهم ، وإنه إن يكن رسولا حقا فجدير به أن يصنع صنيعهم . لكن محمدا لم يحتج إلى طويل تفكير فيما عرضوا عليه ليعلم أنهم يمكرون به.

وأوحى إليه الله يومئذ على رأس سبعة عشر شهرا من مقامه بالمدينة أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام، بيت إبراهيم وإسماعيل ، فنزلت الآية :" قد نرى تقلب وجهك في السماء ...." (البقرة ١٤٤) . وأنكر اليهود عليه ما فعل ، وحاولوا فتنته مرة أخرى بقولهم: إنهم يتبعونه إذا هو رجع إلى قبلته ، فنزل قوله تعالى : "سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم" (البقرة ١٤٢)

سيقول ضعفاء العقول من الناس : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب، يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم ، ما الذي صرفهم عن القبله التي كانوا يصلون إليها ، وهي . بيت المقدس . إذ كانت قبلة المسلمين قبل الكعبة؟ فقل لهم : لله المشرق والمغرب ، لا يختص بمكان دون مكان ، فأينما ولينا وجوهنا ، فهنالك وجه الله . في هذا الوقت الذي اشتد فيه الجدال بين محمد ، واليهود، وفد على المدينة وفد من نصارى نجران ، عدتهم ستون راكبا طمعا في أن يزيد هذا الخلاف شدة خدمة لهم.

إن فضل ليلة النصف من شعبان عظيم ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصوم أكثر الشهر. قالت عائشة: " ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استكمل صيام

شهر قط إلا شهر رمضان ، وما رأيته في شهر أكثر منه صياما في شعبان" (رواه البخاري ومسلم).

وعن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال :" قلت يا رسول الله لم أرك تصوم من شهر من الشهور ، ما تصوم من شعبان؟ قال ذلك شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم" .

شهر فضل نهاره كفضل ليله،فإذا كانت ليلة النصف من شعبان، فقوموا ليلها ، وصوموا نهارها ، من قام ليلة النصف من شعبان ، وليلة العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب.

(١٢)
(الحج ... ميلاد جديد)

المدينة المنورة ، بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيها جمال وأنس ، وفيها أنوار التوحيد ، التى نزل بها جبريل ، عليه السلام ، على قلب الرسول ، وفيها أنوار الرسول الذى كان خلقه القرآن... يقول الشيخ محمد الغزالى . رحمه الله . فى كتابه " فقه السيرة" عندما زار مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم : " عندما زرت المدينة ، توجهت إلى قبر الرسول الجليل ، صلى الله عليه وسلم ، وكانت المشاعر التى تنبعث من قلبى تطن فى أذنى ، فلما تبينت لى معالم الضريح ، يممت شطره وأنا أتضاءل فى نفسى ..وكأنى كرة تتدحرج تحت أقدام عملاق ، وسلمت بالعبارة التى شرع الله ، لم أزد عليها إلا بيتا من الشعر ، لم أدر ما وراءه لما عرانى من اضطراب غمغمت به شفتاى ، ولم تسمعه أذناى :

يا خير من دفنت فى التراب أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

فى المدينة روح مدهش ، يملأ جوانح المرء ، ويكاد السائر فيها أن يخفف وطأ أقدامه، على التراب الذى سار عليه سيد البشر ، وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، وفى المدينة أول مسجد أنشىء فى الإسلام ،وأسس على التقوى ، هو مسجد قباء . وقد ورد فى الحديث الصحيح أن من تطهر فى بيته ، ثم قصد مسجد قباء ، فصلى فيه ركعتين كان هذا بأجر عمرة ..

فى المدينة أيضا جبل أحد وهو جبل قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم :" أحد جبل يحبنا ونحبه".

أما مكة ، ففيها جلال وهيبة، وفيها بيت الله تعالى، ومن هنا كانت فريضة الحج للمسلمين ، منحة من الله للقادرين عليها ، حتى إذا صفت سريرة المسلم ، وخلصت نيته، ورغب فى أداء هذه الفريضة ، دعاه داع إليها فأداها ، وكانت له المدينة المنورة بابا لزيارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن حج ولم يزره ، فقد جفاه ومن زاره وصلى فى مسجده أربعين صلاة ، فقد حرم جسده على النار ، ومن لقى ربه على أرض هذه المدينة ، فقد استحق شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، أو كان له ميلاد جديد .

فالحج ركن من أركان الإسلام الخمس ، منه مطلق القصد : صوم وصلاة وزكاة وشهادة ، فتحقق شمولية الركن ، وتجمع لصاحبها اكتمال الإسلام ، وصحة الدين ، والدين عند الله الإسلام، ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، ويعود الحاج وقد تطهر من كل لمم ، وأصبح كالثوب الأبيض من غير سوء، فيستقبل الدنيا وقد جعلها خلف ظهره ، وقد فهم معنى المساواة والحق والعدل ، الركائز الثابتة الراسخة والصالحة لكل عصر، وحيثما التقى إنسان بإنسان ، ولو استطعنا أن نكسب فى كل عام هذا الكم من المسلمين العائدين من الحج بما استقاموا عليه ، وضمنا استمرارهم على ما اكتسبوه من هجرتهم ، وعلى ألا يعودوا لما نهوا عنه ، ويعملوا بما أمروا به لاستقامت أمورنا ، وما وجدنا على الأرض شاكيا ، بل

شاكرا وحامدا ، لا لهذا الإنسان بل لله تعالى أن هداه،وجعل ما أمره به من المناسك ، داعيا لحمد الله ، والثناء عليه من خلال تعامله مع الآخرين ، لأن المرء إذا نوى الحج، وطهر قلبه واستعد له ، فإن أول ما يفعله أن يرتدى ملابس الإحرام ، وفى ذلك رمز لتطبيق مبدأ المساواة ، وتذكير بالموت ، فهى ثياب تشبه الكفن الذى يلف فيه المتوفى إذا مات.

معنى كبير لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وقد نفض المسلم عن نفسه ثوب الدنيا ، وارتدى ثوب الآخرة، إشارة إلى موت الزمن السابق على الحج ، وحياة الميلاد الجديدة ، يقول أبو الحسن الشاذلى . الصوفى الكبير . وهو يدعو ربه فى بعض أحزابه : "ربنا ألبسنى رداء التقوى منك" ، ويقول الله تبارك وتعالى : " ولباس التقوى ذلك خير" .

فارتداء هذا الثوب يعنى ميلادا جديدا . هذا معنى من المعانى الأولى لهذا الميلاد الجديد ، ومن ثم تتوالى المعانى بالطواف حول البيت العتيق المبارك . أول بيت وضع للناس . ليلتمس الناس منه الهدى . والهدى لفظة جامعة شاملة . فالكعبة رمز للتوحيد ، وإفراد الله بالعبادة والمحبة والطاعة والخلود . وفى ذلك هدى .

أول بيت وضع للناس ، يقول الإمام على كرم الله وجهه ، كانت البيوت قبلة ولكنه أول بيت عبد فيه الإنسان رب العالمين ، ووضع فيه البركة مقام إبراهيم . ويرجع فضل بناء هذا البيت أول مرة لآدم ، ويقول العلماء: إن الملائكة اقترحت عليه أن يبنى الكعبة ، ويطوف حولها كما يطوف الملائكة حول عرش الله تعالى ، وتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه فى هذا البيت ، وكان الدعاء الذى علمه آدم : " ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين" . وفى ذلك هدى .

ثم تلقى إبراهيم أمر بنائها مرة ثانية ، ورفع قواعدها : " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم " (البقرة ١٢٧) . وكان إبراهيم حنيفا مسلما ، كما كان خليلا لله " واتخذ الله إبراهيم خليلا" فلا تكاد تدخل المسجد الحرام حتى يفيض داخلك تيار من الأمن العميق والسلام : " من دخله كان آمنا " ، وكان ضياء للقلب؛ فالطواف عبادة كالصلاة تشترط الوضوء والطهارة غير أن فيها الكلام . وفى ذلك هدى . .

ومعنى آخر من خلال السعى بين الصفا والمروة ، يقول الله تبارك وتعالى : " إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم" .

هذه "هاجر" زوج إبراهيم ، عليه السلام ، كانت تدعو الله فى تطوافها باحثة عن الماء تروى به ظمأ ابنها إسماعيل فانفجرت بئر زمزم تحت قدميها ، فأصبح السعى بين الصفا والمروة ، والهرولة من شعائر الله ، هو ما يفعله الحاج الآن . وفى ذلك هدى .

" ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب " (الحج ٣٢).

ويأتى ركن الحج الأعظم ، وهو الوقوف بعرفة ، وجود الحاج على أرضها لحظة ، ولو كمقدار ما بين السجدتين ... واقفا أو جالسا ، أو ماشيا أو راكبا ، أو نائما أو مستيقظا ، موقف للدعاء ، فإن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة: " الذين يذكرون الله قياما

وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار" .

وأفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وهو كما قال رسول الله لى الله عليه وسلم ؛ " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير " . وفى ذلك هدى .

وآخر عبادة للحاج قبل الرحيل ، هى طواف الوداع ، ويترك هذا الطواف فى المرء أثرا يعود به متخلقا بكل هذه المعانى التى اشتملت عليه لفظة . الهدى . وكأن الأمر الإلهى لنبى الله إبراهيم : " وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود" (الحج ٢٦) .

واستجاب الناس لدعوة إبراهيم ، وبعد أن استجاب الله لدعاء سيدنا إبراهيم : " فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم" خلق فى القلوب هذا الاندفاع فى هوى الكعبة ، والأصل أن للحب أسراره التى تحرك الخطى ، وتدفع القاعدين للسفر والترحال ، فئات الألوف يتقاطرون من فجاج الأرض " ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق" (الحج ٢٩) .

وهم يرددون النشيد المقدس:(لبيك اللهم لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك)

(١٣)
(بداية تاريخ جديد)

لم يدر محمد بن عبد الله ، وهو يتعبد في غار حراء على مألوف عادته ما يمكن أن يكون من أمر يحول الدنيا من حال فيه الناس على سفه وضلال، إلى حال يتحرر فيه الإنسان ليصنع أمة ، تقود حضارة تقوم على الهدى والفضيلة والحق، وأن هذا التحرر وليد الكلمات الأولى التي تلقاها صلى الله عليه وسلم ، في ليلة من الليالي التي خرج فيها مع الفجر إلى الغار ، من وحي ربه... تلك الكلمات التي كانت بداية كتاب معجز، وآية نبي البشر ، ولواء عقيدة وجهت التاريخ منذ أنكر صلى الله عليه وسلم ، موضع الأصنام في البيت العتيق ، وأيقن أن حياة الناس لا يمكن أن تتواصل بهذا النهج، فلابد لهم من منهج، ولابد لهم من دستور ينظم لهم معاملاتهم، ووسائل معيشتهم ، فقد عرف ذلك عندما قرأ باسم ربه، ما أوحى إليه ، وكانت بداية نزول الوحي فجر ليلة القدر ، في العشر الأواخر من شهر رمضان، ويخرج عليه السلام من الغار - بيت العبادة ، ومهبط الوحي - إلى بيته وقد هدأ كل شيء ، وسكنت الضواري ، وبزغ نور الفجر الجديد على الأفق الأعلى ، مؤذنا بانقضاء ليل طالت ظلمته ، وبداية ضياء ينسج أشعته على البيت العتيق. الكلمات ملء فكره ، ومسمعه ، والنور ملء قلبه وبصيرته، والسر الأعظم الذي تجلى له ، كان من الجلال بحيث جعله في حيرة من أمره. أحقا ما رأى وما سمع ؟ فلم إذن هذه الدهشة ؟ وعلام العجب؟ وما سر هذا الإرهاق والجهد، والعبء الثقيل الذي يحس به؟ وما هذا الشعور الذي يشعر به عندما بلغ بيته ، وهذا الشحوب الذي بدا عليه، وكأنه كان في سفر شاق طويل، ويركن إلى ملاذه حيث السكن والرحمة إلى " خديجة" زوجه، ويسمعها وهو يرتعد بما رأى ، ومما سمع ، وهي تصغى إليه بسمعها وقلبها ؛ وفي ثقة وصدق يقين تقول : " الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم ، واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، والله لايخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق" فأحس صلوات الله عليه وسلم ، واحة الأمن والطمأنينة وزوجه تقوده في رفق وحنو إلى مضجعه، فتدثره وتبقى إلى جواره ، رانية إليه ، حانية عليه حتى ينام.

- نبي هذه الأمة - واقع تاريخي منذ تلك الليلة التي توجت ليالي التأمل والخلوة في غار حراء. وقال " ورقة بن نوفل" ابن عم السيدة خديجة - رضي الله عنها. عندما سعت إليه تلتمس لديه الرأى من علمه بالكتب والأديان، إلى حقيقة الفكرة الملهمة التي سيطرت على وعيها المرهف، وبصيرتها الثاقبة: " قدوس قدوس" والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني ياخديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له : " فليثبت".

إن التارخ يراد به ربط الأحداث بأزمانها ، ثم يأتي المكان ظرفا تابعا للزمان ، فيؤرخ بليلة القدر، على أنها بداية تاريخ جديد للإسلام ، ونجد في هذا الحدث كل فعل تعرض له محمد في تلك الليلة ، فلتنظر الدنيا ، ولتلق بالا إلى رجل من بنى هاشم ، ابن امرأة من قريش تأكل القديد، قد اختلى في غار هناك ، مستغرقا في تأمله ، يلتمس شعاعا من نور الحق، وينشد في خلوته أنس الهدى ، وراحة اليقين ، وخواطره تحوم حول البيت العتيق ، الذى رفع ابراهيم القواعد منه واسماعيل ، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود، وأصبحت الدنيا غداة ليلة القدر ، وليس على وجه الأرض كلها من يدين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، سوى زوجه السيدة خديجة بنت خويلد، ثم آمن فتيان اثنان في مستهل الصبا ، كان محمد عليه الصلاة والسلام ، ينزلهما من بيته وقلبه منزلة الأبناء : " على بن أبى طالب" وكان عليه الصلاة والسلام، قد ضمه إليه بعد زواجه من خديجة ، ليخفف العبء عن كاهل أبيه، العم أبى طالب ، برا بعمه ووفاء ببعض حقه عليه ، وهو الذى كفله بعد وفاة جده عبد المطلب، وأسبغ عليه من رعايته وحنانه مالم يحظ بمثله بنوه. و " زيد بن حارثة " ولده بالتبنى ، وكانت أم زيد قد خرجت به صبيا تزور أهلها ، فضل منها في الطريق ، فالتقطه من باعه رقيقا في إحدى أسواق العرب ، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى ، لعمته السيدة " خديجة " التى وهبته زوجها قبل مبعثه ، فطابت لزيد الحياة في البيت الكريم ، حتى جاء أبوه " حارثة بن شراحيل الكلبى" ينشد ولده بعد أن طال بحثه عنه، فترك محمد بن عبد الله، الأمر لزيد ، إذا شاء بقى حيث هو في بيت محمد ، على الرحب والسعة، وإن أراد ذهب مع أبيه حارثة، واختار زيد محمدا ، فانطلق به إلى الملأ من قريش وأشهدهم على أن زيدا ولده بالتبنى ، ودعى زيد بن محمد، حتى نزل قول الله تبارك وتعالى: "ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله " (الأحزاب ٥).

وأسلم كذلك أبو بكر بن أبى قحافة ، وعبد الله بن عثمان التيمى ، واستطاع أبو بكر بجاذبية شخصيته ، ووقار سنه ، وسداد رأيه ، أن يكسب للدين الجديد خمسة من رجال قريش الأعلام : عثمان بن عفان بن أبى العاص ، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيد الله.

ففى ليلة القدر ذكرى لتاريخ صنع مجدا ، وحضارة أمة، وما أحوجنا إلى أن يبقى هذا المجد ، وتستمر تلك الحضارة ، وحسبنا الآن أن نعيش الإسلام تحقيقا، إلى أن ييسر لنا الله أن نعيشه تطبيقا، فإذا كانت تلك الليلة حدثا كبيرا في تاريخ الدعوة الإسلامية ، فكفانا أن نتعلم منها أن تحولا خطيرا قد يحدث ، ويكون النصر حليفا للحق، مهما علا الباطل.

(١٤)
(النبى الأمى)

إن الفاظا كثيرة لا تفسر على المعنى الشائع للكلمة ، وإنما يكون المضمون أعمق من الدلالة التى يحسها المتلقى ، فمثلا كلمة " الجاهلية " ليست بالمفهوم الذى يتبادر إلى ذهن المتلقى للمرة الأولى ، فهى لاتعنى الجهالة أو التخلف أو التدنى ، فقد تحدث الأستاذ عمر الدسوقى ، والدكتور محمد زكى العشماوى ، والدكتور شوقى ضيف، والدكتور إبراهيم عبد الرحمن، وغيرهم ممن تناولوا العصر الجاهلى ، عن ثقافة هذا العصر ، وحضارته فيما ذكره الهمدانى فى الإكليل ، وما كان من رحلات العرب واتصالهم بالفرس والروم التى كانت لها أثرها فى اللغة ، والتى أثرت فى الأدب العربى، ويتضح لنا من قراءاتنا للشعر العربى وما حواه من أشعار وألفاظ وعبارات استمدت من الدول المجاورة ، ومن اختلاف الشعراء على هذه الأمصار ، يأخذون منها ، ويضيفون إلى لغتهم ما يبعث فيها النبض والحيوية والجمال الفنى ، وإذا كان الجاهليون على علم بالكتابة والقراءة ، والشواهد على ذلك فى كتب الأدب، فأولى أن يمتد هذا العلم لمن يأتى بعدهم ، وأن يتصفوا بالمعرفة والثقافة، وقد كان.

وفى الستينيات كنا نتابع ما يكتب فى مجلة " العربى " التى تصدر عن وزارة الإعلام ، بدولة الكويت ، فوقع نظرنا على تفسير كلمة " الأمى للأستاذ الدكتور أحمد زكى ، ضمن موضوعاته التى كانت تدور حول " وحدة الله تتراءى فى خلقه" فأشار إلى أن " الأمى " نسبة إلى الأمة ، التى فسرها بأنها حديثة عهد بالدخول إلى الدين الجديد (الإسلام) . وهويعنى بهذا التفسير أمية الرسول صلى الله عليه وسلم . ونحن نعرف كيف استقبلت هذه الأمة الدين الإسلامى وكيف احتمل الرسول صلى الله عليه وسلم ، تبعات هذه الرسالة ، فوصف بأنه من أمة تخوض مرحلة فكرية تخالف ما كان عليه الآباء والأجداد، وعليه أن يحتمل مشاق الدعوة التى كلفه الله بها ، ولك أن تتصور هذه المشقة من خلال هذه الآيات:

" قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون" (الأنعام٣٣) .

وأمية الرسول صلى الله عليه وسلم ، أمية من بشر ، أى أنه لم يتعلم على يد بشر ، وإنما علمه من لدن خبير عليم ، فالذى علمه هو الله ، وعلى ذلك فعلمه ليس كعلم البشر ، من أجل ذلك وصف النبى الأمى ، نسبة إلى أمية البشرية، ولقد نفى رب العزة جل جلاله أن يكون أحد قد علم الرسول صلى الله عليه وسلم فقد قال:

" ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين" (النحل ١٠٣) .

" وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين" (الأنعام ٣٥).

وكذلك وصفت هذه الأمة بنفس الصفة فقال تعالى:"هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم" (الجمعة ٢)٠ فهم حديثو عهد بالإسلام، والنقلة ثقيلة عليهم ، ولا بد من أن تكون الدعوة على يد واحد من بينهم ، يعرفهم ويعرفونه، فاصطفاه ربه لهذه الرسالة التى علمها العالم كله. وعلى ذلك فأمية النبى صلى الله عليه وسلم ، لا تعنى دلالتها التى نعرفها من الجهل بالقراءة والكتابة ، أو ما هو ثابت فى أذهاننا فى عصرنا هذا من التخلف الفكرى والثقافى واللغوى.

نحن نعلم أنه لم ينكر أحد عربية النبى ، ولم ينكر أحد أن العرب قد فهموا القرآن حين سمعوه تتلى عليهم آياته ، فإذا لم ينكر أحد أن النبى عربى ، وإذا لم ينكر أحد أن العرب قد فهموا القرآن حين سمعوه، فأى خوف على أمية النبى، وقد احتاط المسلمون أشد الاحتياط فى رواية القرآن وكتابته ودرسه وتفسيره.

قيل : إن العرب سموا الأميين لأنهم كانوا لا يقرأون ولايكتبون ، فى الأعم الأغلب . مما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال " الشهر هكذا و هكذا ، وأشار بأصابعه ". وقال : " إنا نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب " (ذكره الإمام الجصاص ، صاحب أحكام القرآن بغير إسناد) ، وربما كان المعنى على غير ما نفهم من عدم القراءة والكتابة لكلمة الأمى.

وقيل أيضا إنما سمى من لا يكتب أميا ، لأنه نسب إلى حال ولادته من الأم ، لأن الكتابة إنما تكون بالاستفادة والتعلم... وإذا كانت كذلك فالجاهليون قد استفادوا وتعلموا ممن قبلهم، وكذلك استفاد من بعدهم بهم ، وأيضا ربما سموا بالأميين ، كذلك كما كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم : إنهم " جوييم " باللغة العبرية ، أى أمميون، نسبة إلى الأمم ، بوصفهم شعب الله المختار ، وغيرهم هم الأعم، والنسبة فى العربية إلى المفرد "أمة" أميون.

وقد ذكر لفظ " الأمى " فى القرآن الكريم ، وفى تفسيرات المفكرين والعلماء والشراح، والمراجع التى بينت المعنى الشائع عند العامة والناشئة. ونحن ننبه إلى الخطر الخفى الناجم عن الترجمات ، ولابد من التصدى له من الدارسين والباحثين والمترجمين ، وكل من يشتغل فى هذه الميادين تأدبا مع ما تحمله الكلمة وأشابهها مما له صلة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحابته.

وقد أقيمت ندوة (بالأهرام الدولى) كان موضوعها عن (الاستشراق الجديد والترجمات المعاصرة) ، ووقف على الأخطاء التى تنتج من رؤية اللفظة ، فالمنهج الفيلولوجى . علىسبيل المثال . معناه أنه يجب أن ندرس كل كلمة تأتى فى الوثيقة (القرآن) : أى البحث فى الألفاظ فى معناها الجارى فى زمانها ، أى بمعنى آخر . العودة لفهم ألفاظ القرآن الكريم ومعانيها فى زمن نزول القرآن، وأسباب التنزيل وما إلى ذلك ... ومع هذا فإننا لا نعدم الخروج على هذا فى بعض الأحيان . وهذه آيات وردت فى القرآن الكريم ن متضمنة معنى الأمية ، يقول الحق تبارك وتعالى:

" ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى" (البقرة ٧٨)

" وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد" (آل عمران ٢٠).

" ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون " (آل عمران ٧٥).

"الذين يتبعون الرسول النبي الأمي" (الأعراف ١٥٧) .

" فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله " (الأعراف ١٥٨).

" هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين" (الجمعة ٢).

بلاغ على يد نبي بني إسرائيل ، موسى عليه السلام ، بالخبر اليقين من رب العالمين، بنبي أمي . يأمر بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، فمن اتبعه فأولئك هم المفلحون.

النبي الأمي . من هذه الأمة عرب ، وغير عرب ، والذي يراجع التاريخ يعرف أنها صاحبة حضارة .

ويؤمر النبي الأمي ، بإعلان الدعوة إلى الناس جميعا....

" قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون" (الأعراف ١٥٨)

النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ... تفسير للفظة " الأمي " ليس الذي لا يعرف القراءة والكتابة ، إنما الذي يؤمن بالله وكلماته ، يؤمن بعلم الله الذي تعلمه ، والكلمات التي أطلعه عليها وهي كثيرة لا تعد ولا تحصى : " قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا، (الكهف ١٠٩)

" ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم" (لقمان ٢٧) .

هذه هي كلمات الله ... التي آمن بها النبي ، وتعلمها من الله .

إن النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته ويدعو الناس جميعا من كل أمة برسالة السماء الخالدة . ولقد نطق الرسول ، بأسماء الحروف وهو أمي ، وعرف الأسماء ، فعرف أنه علم ، فمعرفته بأسماء الحروف ، دليل على علمه ، ودليل على أنه يعرف الكتابة والقراءة، وإلا لما كان في حاجة إلى أن يعرف ا ل م .... وإذا نظرنا إلى الآيات من سورة البقرة رقم ٧٨ ، وجدنا حال بني إسرائيل...فريق يكتبون تزويرا على الله ، وفريق لا يدري شيئا من كتابهم الذي نزل عليهم ، ولا يعرف منه إلا أوهاما وظنونا ، وإلا أماني في النجاة من العذاب: "ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم".

فالأمية هنا ليست جهلا بالقراءة والكتابة ، فمنهم من يكتبون بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

وفي سورة آل عمران ، الآية ٢٠ ، يقول الله تعالى: " فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد" . فهم سواء ، أهل الكتاب والأميون مدعوون إلى الإسلام ، الذين يعرفون الكتاب ، والذين لا يعرفونه ، ثم لا إكراه على الاعتقاد لهؤلاء أو هؤلاء.

وفي نفس السورة الآية ٧٥ يقول الله تعالى : " ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون" .

صنعة يهود . فالأمانة بين اليهودى واليهودى ، أما غير اليهودى ، ويسمونهم الأميين، وكانوا يعنون بهم العرب (وهم في الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود) فلا حرج على اليهود في أكل أموالهم.

والأمية الدينية ، كالأهلية الدينية التي خاطب بها الله سبحانه وتعالى نوحا عليه السلام ، عندما طلب منه أن ينجي له ابنه من الغرق، والسفينة تجرى بهم في موج كالجبال.. فهو من أهله . لكن الحق يعلن أنه ليس من أهله، يعني أنه ليس على دينه :" ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين " (هود ٤٥-٤٦).

والقرآن خير مثل للغة العرب في جاهليتهم ، نزل بتلك اللغة الموحدة التي كان يفهمها العرب جميعا ، فلا ريب أنه نزل للعرب أجمعين ، وقد أقروا بإعجازه وفتنوا ببلاغته وفهموه فآمنوا به . وفي ذلك يقول " بروكلمان " لقد اتخذ شعراء الجزيرة في شتى أماكنهم، وعلى الرغم من اختلاف قبائلهم لغة مشتركة ، وتدل سمات هذه اللغة والطريقة التي انتهجها الشعراء في تعبيرهم ، على أنها لغة شعرية.

وليس ثمة أية فرصة للشك في وجود مثل هذه اللغة المشتركة في عصر لم تعرف فيه الكتابة ، ولم يجد الشاعر أمامه أية وسيلة إلا الإنشاء ، واقتضت الحكمة أن يكون هذا النبي من العرب من الأميين غير اليهود ، وكانت هناك دعوة إبراهيم عليه السلام: " ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم " (البقرة ١٢٩) .

نبي أمي يتلو آيات الله ، ويعلم الكتاب والحكمة ، ويزكي .. تلكم هي الأمية التي أخرجتهم من أميتهم ، أو من أمميتهم بتغيير ما بهم .

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم،عن نفسه فقال: " دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام" .

وقد ذكر " جعفر بن أبي طالب " صفات النبي الأمي ، لنجاشي الحبشة، حين بعثت قريش إليه عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة، ليكرهاه في الماهجرين من المسلمين،

ويشوها موقفهم عنده ، فيخرجهم من ضيافته وجيرته ، فقال جعفر: " أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ... فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه وأمانته وعفافته ، فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام"

بعض المتشددين ، أثاروا بعض الشبهات حول أمية الرسول ، بأن هذه الأمية هي ؛ سر إعجازه ، وهي إحدى معجزات الأنبياء ، فرسول لا يقرأ ولا يكتب ، علم الناس منهج حياتهم وحركتهم ، جدير بأن يكون ذلك معجزة ، ولا معجزة له إذا كان يقرأ وكان يكتب ، واستشهدوا على إصرارهم بآيات من القرآن الكريم : سورة العنكبوت ، الآية ٤٨ ، وسورة الأعراف الآية ١٥٧ ـ ١٥٨ ، وغير ذلك مما استشهدوا به ، وما كان موصوفا في التوراة والإنجيل ، وفي التفاسير والسير ، كسيرة ابن هشام ، وكتاب الرحيق المختوم ، في السيرة النبوية ، وكتاب صفوة التفاسير .. إلى غير ذلك .

ونقول:إن ذاك شيء محمود ومن يقرأ ويعرف عن الاستشراق القديم والجديد ، والترجمات المعاصرة ، لأدرك أن للقراءة المقبولة بالشكل المنهجي ، لابد أن يكون لها عدة شروط محددة ، فندعو إلى إعادة القراءة ومحاولة الفهم مستفيدا من عديد ما قدم من اجتهادات معاصرة في التفسير.

وأختم بالنظر إلى محاولة تفسير ما جاء في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما حاول أصحابه يوما تهوين الألم على نفسه ، فذكروا له نصائحه ألا يشكوالمريض ، فأجابهم : إن مابه أكثر مما يكون في مثل هذه الحال برجلين منهم ، وفيما هو في هذه الشدة ، وفي البيت رجال: "إيتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا". قال بعض الحاضرين : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن، وحسبنا كتاب الله . ويذكرون أن عمر هو الذي قال هذه المقالة (حياة محمد ص ٥٠١ ط٤ مطبعة مصر سنة ١٩٤٧).

(١٥)
(سلاما صاحب الذكرى.... سلاما)

تعامدت الشمس ظهر يوم الأحد ، الرابع والعشرين من صفر ١٤٢١ هـ ، على الكعبة المشرفة ، في مكة المكرمة، حيث يكون مركز الشمس في اتجاه القبلة وتلك آية كونية من آيات الله ، وما أكثرها ، وهي تعيدنا إلى ذكرى من أحب الذكريات إلى قلوبنا ، ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، في هذه البقعة المباركة ، وما لهذه الذكرى من دروس نعيها ونستعيدها لتكون لنا نورا نهتدى به في طريقنا ، ولكن أكثر الناس لا يعقلون ، فهم يعيشون في واد من النسيان ، وتاهت عقولهم في بحار الظلمات ، ورغم محاولات انتشالهم مع كل ذكرى ، وتذكيرهم بعهود حرص الناس فيها على التمسك بمنهج الحق القويم ، الذى أعلن يوم أشرقت شمس الهدى في مكة المكرمة ، فكان مولد نور، وضعته أمه بشرا بجوار البيت العتيق ، والنور ضياء تتفتح فيه الدنيا لموكب الشروق .

ولن أحدثك عن الظروف غير المألوفة التى حفت بمولده صلى الله عليه وسلم، ولا وقع البشرى التى تلقتها أم القرى ؛ ففى الذكرى ما يملأ الصفحات حول هذا الحدث العظيم، وكتاب السيرة النبوية ، ومؤرخو الإسلام الأولون ، ينقلون أخبار تلك الفترة عبر الأيام والسنين ، فنسمع بها ونقرأ عن تفاصيلها.

وتأتى الذكرى في موعدها من السنة القمرية ، والدنيا قد تراكمت على أفقها من ظلمات تشكل ليلا داجيا وتعود الوثنية والشرك ليتسللا إلى عالمنا ، بعد أن أقيمت دولة على أقوم منهج انبعثت من أم القرى. ومكة في سالف عصورها كانت دار شرك، ومركز وثنية عربية، وكان للشرك مفهومه ، وللوثنية مفهومها ، ويتحطم هذا المفهوم على صخرة الحق ، ويدوى صداه في بقاع الأرض، ورغم ذلك تبقى جذور الشر ، لتنشر سمها من جديد في صور نراها ونسمع بها ونقرأ عنها ، تتمثل في حالات الاغتصاب ، والقتل ، والاختلاس والرشوة ، والمحسوبية ، والظلم، والجبروت الذى يعيدنا إلى جبروت فرعون ؛ والعلاقة الأسرية غير المترابطة ، وما يصنعه الأبناء بأمهاتهم وآبائهم، وما تصنعه الأمهات بفلذات أكبادهن ، والآباء في هجر وخلاف ... والتعاملات غير الإنسانية التى تفشت في كل الأوساط ، وحيث يلتقى إنسان بإنسان ؛ وغير ذلك مما يعجز القلم عن تسجيله،وليس يبعد عنا معرفته ، ومعرفة أضراره التى تصيب المجتمعات ، وتفقد ثرواتها المتمثلة في الشباب الهائم على وجهه في الشوارع والطرقات، يطفون طول النهار وثلثى الليل على غير هدى، كما تطوف القطط والكلاب ليل نهار، لا يجدون ملجأ يلجأون إليه لأن سبل الحياة قد ضاقت بهم ، أو هكذا يتوهمون ، وتغلق أمام عيونهم منافذ الأمل مما يفسد عليهم كل شىء ، ومن ثم يرتكبون كل شىء خطير في سبيل تحقيق مآربهم غير الهادفة ، فهم في حيرة دائمة ، ينتابهم شعور بالاكتئاب والنفور ، وسوء الحالة النفسية.....

ولو أنهم كانوا على شىء من الإيمان ، لتوجهوا بقلوبهم إلى عالم الغيب والشهادة ، ولوجدوا الرحمة تتسع لكل يائس ولم يقتصر الأمر على ما أشرت عليه من أمور ترتكب في

عالمنا بل تتسع الدائرة لنسمع عن عباد الطاغوت فى مكان ما، وهم يشكلون خطرا داهما فى المجتمعات ، لأن عبادتهم مشوبة برواسب من قديم ما قبل الطوفان .. شرك ووثنية وإن اختلفت الدلالات والمعانى ، ولكن المفهوم العام لاخلاف عليه ؛ فالذين عبدوا " ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا" هم عباد طاغوت وهم ضالون عن سواء السبيل، وصاروا مثلا فى زماننا فأصاب بسهامه من أصاب ، وأفسدهم ما تسلط عليم من فكر، ومن ترف باذخ، وانحلال منهك، لقد عبد الشيطان ، واتخذ رمزا لعبادة المترفين والشواذ ، وأصبحت عبادتهم جهارا ، متحدين بها كل فكر غير ما يعتنقون ، وألقت هذه العبادة غشاوة على بصيرتهم ، فأحجمتهم عن الصواب، ونسوا ما ذكروا به من آيات الله ، ورسالة نبيه ، فعاثوا فى الأرض فسادا فمن يمزق هذه الغشاوة؟ ويسقط أقنعة الزيف عن خلل الأوضاع؟ إنها عقول أوت إليها الخرافة وسكنت الأباطيل، ولاصلة لها بالإسلام،وهى نفوس لا ترى إلا هواها ، ولا تقف إلا عند حدود أثرتها ، فإذا كان أتباع الهوى ، كما أنبأنا الله ، يفسد السماوات والأرض ، فكيف لا تفسد بالأهواء المطاعة شئون قبيل من الناس ، قلوا أو كثروا ... تلفهم ظلمات الفوضى والمذلة والجهل ، فإذا عادوا إلى الحياة الصحيحة ، وانطلقوا فى الأرض يحفهم الإيمان ، كانوا فيمن أظلهم الله بظله ، وأنجاهم الله من العثرات ، وآمنهم من خوف ، كما تحمل لنا الذكرى هذا المعنى عندما أوشك حمل "آمنة بنت وهب " أن يتم أجله ، وروعت كما روعت الجزيرة كلها بغزو" أبرهة الحبشى " لأم القرى، يريد أن يصرف عنها حج العرب إلى كنيسة بناها فى " صنعاء " ويكون فى ذلك شتات القوم ، وكتب إلى مولاه نجاشى الحبشة يسترضيه .. وجاء أبرهة بجيشه من اليمن ليفرق الشمل ، وشق على "آمنة " أن تضع وليدها بعيدا عن الحرم المكى ، وعن دار أبيه عبد الله بن عبد المطلب ولاذت بإيمانها بأن الله مانع بيته، فليس لطاغية إليه سبيل، ويسلط الله على الغزاة أصحاب الفيل نقمته ، فانتشر فيهم وباء غريب ، حاصد رمتهم بجراثيمه المهلكة " طير أبابيل ، " فجعلهم كعصف مأكول" وولى الجيش مذعورا ، وانكسر ، وتساقطوا، وأبرهة ينتثر جسمه من هذا الوباء غير المعروف لديهم، ولم يكن لهم عهد به قبل ذلك فحاروا فيه . مثلهم كمثل ما نسمع به اليوم من أوبئة نحار فيها ونحارب منها ، وكلما قضينا على وباء ظهر غيره مما يصعب علينا إدراكه ، لتظل قدرة الله ماثلة أمامنا، وحتى لا نغيب عن الوعى فننسى أننا بشر، وأن حولنا إله بيده ملكوت كل شىء، وأنه يحف من يشاء بعصمته ، ويجعل النور لمن يشاء فيجدون عند الله الملجأ والملاذ وتنزل عليهم السكينة وتفرج كرباتهم."

ووضع الوليد ، وتألقت الدنيا نورا وبهاء، وخلدت تلك الليلة المقمرة الغراء من شهر ربيع الأول وبوركت بمولد يتيم هاشمى فى أم القرى ، ابن امرأة من قريش تأكل القديد ، يصطفى للنبوة . فتكون رسالته رسالات الدين كله، وتكون الثورة التى عرفها العالم للتحرر العقلى والمادى؛ وتغدو أقواله وأفعاله وتقريره سنة وشريعة لملايين الناس على امتداد الزمان والمكان ، والنظام الذى نقيمه ، والتشريع الذى نطبقه ، والحرية التى تحييها ، والإنسان الذى تبنيه ، والمنهج الذى تؤسسه والعمل الذى تحمله ، رسالة تصلح بها الحياة فى جميع العصور ، إلى أن تقوم الساعة .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد " صاحب الذكرى" ، وآل بيته وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(١٦)
(ضياء الكائنات في مولد محمد)
- نبي النور -

ما أصعب الكتابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما أيسرها ، فما أكثر ما قيل وما كتب وما سمع عن كل جانب من جوانب حياته ، الصادق الأمين والإنسان صاحب الرسالة ، فليس أسهل أن نقرأ وأن نسمع وأن نكتب ، ولكن ليس أصعب من أن نهتدى إلى كريم خلق أو نسعى إلى رفيع خصال فى الأهل والولد والصاحب ، سلوكا أخلاقيا قويما ؛ فكم من تذكرة وقفنا عندها فى الثانى عشر من ربيع الأول فى كل عام ، وتحلق بنا الذكريات فى سماء التاريخ ، فقد ولد النور على ظهر الأرض نقاء وصفاء وطهرا ، نور مستمد من النور الإلهى ، الذى وصفه الحق تبارك وتعالى فقال : " الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح..." (النور ٣٥)

لا يرى شيء فى الأرض ولا فى السماء إلا بنور الله ، صفة نوره ككوة فيها مصباح ، المصباح فى قنديل من الزجاج ، القنديل كأنه كوكب مصوغ من جوهر الدر، يتوقد من زيت شجرة مباركة هى شجرة الزيتون ، ، يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار ؛ ويضرب الله الأمثال للناس ليبين لهم المعنويات بالمحسوسات . والمثل قول شبه بمضربه مورده كالحكمة . وهذا المثل ضربه الله عز وجل ، لقلب محمد صلى الله عليه وسلم ، فالله نور ومحمد صلى الله عليه وسلم ، نور، نور على نور يرشد الله لتلمس نوره هذا من يشاء من عباده ، انبثق النور فى أرض طهور، وأضيء ببعثه القلوب ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، ودعا إلى السلام فى الأرض ، وعلى الأرض ، وقاوم الشر.

ميلاد النور سلاما ، لقد اتجهت بدعوتك إلى من يعيشون فى شظف وجدب، وعلمتهم أن الحضارة فى التعاون والإخاء والمصالحة ، لم تتجه بدعوتك إلى قتلة الأنبياء ولمن انقطع بهم الشر، وركبوا الفساد ، ولمن يرون أن الشجاعة فى السفك والسلب ، ولمن تربطهم وحدة ولا يردعهم قانون ، ولا يجمعهم دين.

هناك نفوس لا ترى إلا هواها، ولا تقف إلا عند حدود أثرتها ، إن الذين يفقدون أنوار العلم والفضيلة والحق والعدل والإيمان ليسوا من محمد فى قليل أو كثير. إن ظلمات الفوضى والمذلة والجهل التى تلف جماهير المسلمين اليوم تجعل نبيهم ينظر إليهم فيأسى ، أليس نبى النور؟ فما للنور وأهل القبور ، فإذا عاد المسلمون إلى الحياة الصحيحة ، وانطلقوا فى الأرض تحف بهم أنوار الهدى والسداد، كانوا أهلا لأن تباهى بهم الأمم .

إن محمدا يكره الظلام، ظلام الانقطاع من الله ، ظلام الاستسلام للأثرة الجياشة الطافحة ، ظلام التقليد الأجوف والتخبط فى مهاوى الردى.

عن ابن عباس ، أن النبي خرج إلى الصلاة وهو يقول : " اللهم اجعل في قلبي نورا وفي بصري نورا وفي سمعي نورا وعن يميني نورا ، وخلفي نورا ، وفي عصبي نورا ، وفي دمي نورا ، وفي شعري نورا وفي جلدي نورا ، اللهم اجعل لي نورا" .

إن الظلام قد عاد يزداد في كل بقعة من الأرض ، وأطفئت مصابيح التوحيد ، وتحولت الحياة إلى غابة كئيبة يلتهم فيها القوى الضعيف ، وينتصر فيها الشر على الخير...

إن الله الذي سلط على الغزاة أصحاب الفيل نقمته فانتشر فيهم وباء غريب حاصد ، رمتهم بجرائيمه المهلكة، طير أبابيل " فجعلهم كعصف مأكول" ، قادر على أن يسلط على غزاة اليوم بمعجزة إلهية خارقة فتجعلهم كعصف مأكول.

ماذا يقال في ذكرى ميلادك يا رسول الله ؟ وكلنا نرنو إلى الحب والعدالة والحق والحرية التي ناديت بها ... ماذا نقول ، وقد كانت رسالتك ياسيدي يارسول الله هي أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلي والمادي ، وكان أتباعك أعدل رجال وعاهم التاريخ، وأحصى فعالهم في ضرب المستبدين وكسر شوكتهم طاغية إثر طاغية..... كانت الأصنام تملأ ساحة البيت العتيق قبل مولدك يارسول الله ، دليلا يشهد على سقوط العقل العربي وانتكاسه، فأحييت الموات بمولدك وأعدت للعقل العربي قوته ؛ واليوم نشكو إليك زلاتنا في أبنائنا وبناتنا ، وفيما آل إليه حالنا الذي لايخفى على أحد ، وفي تشتت أفكارنا التي لاتهدينا إلى السبيل ، ادع لنا الله أن يغمرنا من جهاتنا جميعا بالنور ، حتى لا تعصى علينا سبيل ، وحتى لا يطمئن بنا نزوع، أو يلتوي بنا هدف .... ادع لنا الله أن يشع من حولنا هالة لا تنطفئ أبدا ، وادع أن يتغلغل هذا النور في كياننا حتى يمتزج بجلدنا وعصبنا .

سلام عليك يارسول الله مولودا ومبعوثا ومقيما ومهاجرا ، ومبشرا ومنذرا وحيا وميتا ، وروحا في عليين ، سلام عليك ما تعاقبت السنون، وتوالت الأيام ، نردد دعوتك وتنشر صفحتك وتظهر مجدك وتتلى على الوجود الآيات البينات.

لقد كنت سلاما على الوجود منذ تعلقت الإرادة بوجودك ، والمشيئة بخلقك ،فأنت حق من الحق ، ورحمة من الرحمة، ونور من النور.

إن المثل الذي ضربه الله عز وجل في سورة النور الآية ٣٥ ، مثل ضربه تعالى للقرآن في قلوب أهل الإيمان ، وجعل المصباح مثلا لما في قلوب المؤمنين من القرآن ، وضرب الزجاجة مثلا لصدر المؤمن في خلوصه من الكفر، وشبه الزجاجة في صفائها وحسنها بالكوكب الدري المضئ الحسن الصافي ، وهذا المصباح يوقد من دهن شجرة ليست شرقية تطلع عليها الشمس ، بالغداة من قبل المشرق دون العشي ، ولا غربية تطلع عليها الشمس بالعشي دون الغداة ، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب ، فهي شرقية غربية ، وإنما وصف الله عز وجل الزيت الذي يوقد على هذا المصباح بالصفاء والجودة، وإذا كان شجره شرقيا غربيا، كان زيته أصفى وأضوأ ، ومعنى ذلك : تكاد حجج الله تعالى من بيانها ووضوحها تضئ لمن فكر فيها ونظر ، أو أعرض عنها ولها .

النار على الزيت ، وهو مثل القرآن أنه نور على نور الله ، وحججه التي كانت منصوبة قبل مجئ القرآن ونزوله.

(١٧)
(معجزتا الإسراء والمعراج رحمة للعالمين)

قام الرسول صلى الله عليه وسلم ، برحلة مباركة ، بأمر ربه ، وسبحانه العظيم، القادر على كل شيء ، ولا معقب لحكمه.

فى منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله ، وصمتت فيها طيور الروابى ، وسكتت الضوارى وانقطع خرير الغدران ، وصفير الرياح ، كان ابن عبد الله فى بيت ابنة عمه ، هند ابنة أبى طالب، وكنيتها أم هانئ ، وقد كانت هند تقول : " إن رسول الله ، نام عندى تلك الليلة فى بيتى ، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا ، فلما كان قبيل الفجر ، أهبنا رسول اله ، فلما صلى الصبح وصلينا معه، قال: ياأم هانئ ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ، ثم جئت بيت المقدس، فصليت فيه ، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين ، فقلت له : يانبى الله ، لا تحدث به الناس فيكذبوك، ويؤذوك ، قال والله لأحدثنهموه."

هكذا كانت رحلة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم أعرج به إلى السماوات العلى ، محمولا على دابته (البراق) ، ورأى الأنبياء والمرسلين، وصلى بهم إماما ، وأخذ يصعد ويصعد حتى بلغ الحضرة الإلهية فى الملأ الأعلى فى حضرة التقريب، وأصبح قاب قوسين أو أدنى ، وهنا قال له جبريل : يارسول الله ، هذا مكانى ، لا أستطيع أن أبرحه.

لكن لماذا كانت هذه الرحلة الأرضية السماوية ؟ لنريه من آياتنا ...

إن المرء يقف يطرق خاشعا أمام هذا الفيض الغامر ، ماذا عساه يقول ؟ أعن الصبر والتحمل ، أم عن التضحية والإيثار ، أم عن الجود والعطاء ، أم عن الكرم والفداء...؟

أم عن الصلاة التى فرضت فى هذه الرحلة، وهى معراج لأرواح المؤمنين إلى الله تعالى ، وسبيل لعروج الأرواح إلى عالم الطهارة والبركة فلقد كانت كل التكاليف من الله للبشر، إلى الرسول بالوحى ، ما عدا الصلاة ، فهى تكليف من الله لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا تسقط عن الفرد طالما كان واعيا ، وقد جعل الله فيها بقية الأركان التى يستند عليها الإسلام ... الصلاة من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين.

فإذا أردت أن ترى الله ، فاسع إلى المساجد، وعدها للصلاة ، فستلقى الله ، لأنك حينئذ من المؤمنين، وفى الحديث : إذا رأيتم الرجل يعود المساجد ، فاشهدوا له بالإيمان.

لقد قال أبو بكر - رضى الله عنه - عندما سئل عن رحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء يأتيه فى غدوه أو روحة ". من أجل ذلك سمى بالصديق .

هذه الرحلة تعطى الشباب حضور الذهن ، ويقظة القلب ، بأن خالق الكون يتصرف فيه كما يشاء ، فسبحان الله ، لا تقال إلا لله ، فهو العظيم فى ذاته ، القادر على كل شىء، القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم.

وإذا كانت قوانين هذه الرحلة ، قد حار فيها المفسرون والشراح والعلماء ، فإن العلم الحديث ، والتطور التقنى قد أثبت أن قوانين الحركة مختلفة فى الوجود ، وإذا كان الإنسان قد استطاع أن يتوصل باختراعاته واكتشافاته وعلمه إلى تقليل الزمن وازدياد السرعة، فى الأجهزة الحديثة ، والوسائل المتطورة ، وأن، مقياس الطاقة يختلف باختلاف المستقبل ، ليستخدم أقصى معدل له، تعمل بكفاءة مختلفة فإذا كان هذا صنع الإنسان، وما قام به العلماء ، فما بالنا بصنع الله وما يقوم به ؟ وإن المرء لا يستطيع أن يجارى الله فى أعماله ، إنما يستمد منه الطاقة التى تعينه على كل ما هو فى خدمة التنمية البشرية ، فإذا أمكنك أن تتقدم فى اختراعاتك ووسائلك ، فاعلم أن الله فوق ذلك فليس كمثله شىء...

وهو فى كل شىء ، فى كل مكان وزمان وأينما كنت ، وتستطيع أن تراه كما ترى الأشياء تحت المفهوم الذى رأى به موسى ربه، والذى يفسره قوله تعالى : " ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين" (الأعراف ١٤٣).

ولنتمثل قول الشاعر الذى أقر باللجوء إلى الله والاستعانة به فى هذين البيتين :

جنيت بروضها شوكا ووردا وذقت بكاسها شهدا وصابا
فلم أر غير حكم الله حكما ولم أر دون باب الله بابا

وتأمل سماحة الإسلام من خلال ما أوصانا به رسولنا الصادق الأمين ، بأن نعيش مع أهل الكتاب حياة يسودها العدل ، وحسن المعاملة ، فقال : " من آذى ذميا فقد آذانى ، ومن ظلم معاهدا أو انتقصه حقه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس ، فأنا خصمه يوم القيامة" بهذه الوصايا يكتب لنا التقدم فى جميع شئوننا ، ونصل بذلك إلى رضا الله.

وإذا أردت أن ترى آيات الله ، فالكون ملئ بها ، وإذا نظرت إلى نفسك رأيت آيات :

فى عينيك آية .. وفى لسانك آية... وفى شفتيك آية ... وفى تنفسك آية... وتناولك طعامك وشرابك آية، ميكانيكية الإنسان آيات ... فإذا أدركنا هذه الآيات ، إدراك البصير ، أدركنا كيف خلق الله الكون بنظام ثابت وسنة لا تتبدل ، من خلال التبصر فى نفسك : " وفى أنفسكم أفلا تبصرون " .

إن هذا النظر الدقيق العميق ، يؤكد لنا دقة النظام فى الكون ، وأن قوة قادرة من ورائه تسيره بهذا النظام العجيب ، وأن غاية ما يدركه المرء أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرتنا ، وأن وراء تدبير الله سلطانا ، لا تصل إليه سلطتنا .

هو الله ، له الأسماء الحسنى :

فاللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف
وأنت بالعلم موصـوف
وقد وسعت كل شيء من جهالتى
بعلمك فسـع ذلك برحمتك كما
وسعته بعلمك
واغفرلى.... إنك على كل شيء قدير
اللهم هب لنا من نعماك
ما علمت فيه رضاك
وقدسنا من كل وصف يوجب
نقصا مما استأثرت فى علمك
عمن سواك
ياألهى نسأل الفقر ممن سواك
والغنى بك حتى لا نشهد
إلا إياك
والطف بنا
واكسنا من العصمة فى الأنفاس
واللحظات
وعلمنا علما نصير به كاملين
فى المحيا والممات

(١٨)
(الله أكبر... نشيد الهجرة)

ويؤذن للنبى فى الهجرة ، من أرض يحبها ، وقوم يحبهم ويحبونه ، إلى أرض طيبة ، وقوم طيبين ، فلم تكن هجرة بمعنى المفارقة ، لأن أرض الله واحدة، غير أنه ضاق بهذه البقعة ، وأرض الله واسعة، فلا ضير أن يرحل إلى مكان آخر ، والله تبارك وتعالى يقول: "والأرض وضعها للأنام" ، لكل الأنام بلا حدود أو فواصل ، فهناك أرض بلا رجال ، وهناك رجال بلا أرض ، وعلى ذلك فإذا ضاق بك المكان ، فلترحل إلى غيره ، فأوطان الرجال تختلف بسعيهم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، سعيه للعالم أجمع ... وفى دار الندوة . دار قصى بن كلاب . التى كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها ، تجتمع قريش بقضها وقضيضها ، ليقضوا أمرا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأجمعوا على قتله ، ويحفظه الله من ذلك بفضل آيات سورة (يس) عن القرآن الكريم ، فتكتب له النجاة ، ويبكى الصديق أبو بكر فرحا لصحبته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى هذه الهجرة ، حيث أقام معه فى الغار ثلاثا ، ثم انطلقا ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، بقباء فى بنى عمرو بن عوف ، أياما ، وصلى عليه الصلاة والسلام ، أول جمعة بالمدينة ، وأتت ناقته دار بنى مالك بن النجار ، وبركت ، فبنى صلى الله عليه وسلم ، مسجده فى هذا المكان الذى بركت فيه الناقة ، أمام محلة بنى النجار.

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المدينة يوم الإثنين ، حين كادت الشمس تعتدل لثنتى عشر ليلة، مضت من شهر ربيع الأول ، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، بعد أن بعثه الله بثلاث عشر سنة ، فأقام بها ، ثم توالت غزواته صلى الله عليه وسلم ، بعد ذلك ؛ ومن أقواله: " اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مدها وصاعها".

وروى الطبرانى بإسناد حسن . فى فضل المدينة . عن امرأة يتيمة كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، من ثقيف: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت ، فإنه من مات بها كنت له شهيدا ، أو شفيعا يوم القيامة " . ولهذا سأل عمر . رضى الله عنه . ربه أن يموت فى المدينة . فقد روى البخارى عن زيد بن أسلم عن أبيه : أن عمر قال : " اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى حرم رسولك صلى الله عليه وسلم " .

بعد أن أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالمدينة ، واستجمع له إسلام هذا الحى من الأنصار، وأخذ يخطب بالناس ، ويكتب بين المهاجرين والأنصار ، ويؤاخى بين أصحابه منهم ، واطمأن ، واجتمع له إخوانه، واستحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة،وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وعندما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم،بما يدعون به إلى الصلاة، قال : إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فلتلق على بلال ليؤذن بها:

" الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح حي على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله .... (نشيد الهجرة) .

الله أكبر في إقامتك للصلاة، الله الكبر في النصر، الله أكبر في النحر ، الله أكبر في الغنى ، الله أكبر في الفقر، الله أكبر في الرضا، الله أكبر في الضيق، الله أكبر في العسر ، الله أكبر في اليسر، الله أكبرفي الشدة ، الله أكبر في الفرح.... الله أكبر في النوائب، نسيناها فأنسانا الله أنفسنا ، ولم نعد نجد تفسيرا للظواهر من حولنا .... الفيضانات العارمة التي تجتاح مدنا كانت آمنة ، والحرائق التي تلتهم ما أمامها ، والأعاصير والأنواء التي يظهر العجز الدولي الواضح عن مد يد العون إلى سكان تلك المدن . إلا أن يشملهم الله برحمته . ويحميهم من انتشار الأوبئة والأمراض التي تزداد بفعل هذه الظواهر ، وما تسفر عنه من مصرع الكثيرين ، وتشريد الألوف ، وحالات الوفاة بسب الأوبئة ، وما يتأثر به الباقون من تهديد بالمجاعة التي تحدث نتيجة لتدمير المحاصيل الرئيسة في البلاد ... وليت الناس يعتبرون ، فعلى الساحة الشيشان تقصفها الطائرات ، والمدفعية الروسية، ويكاد يقضي عليها،وعلى معاقلها ، وهم صابرون مصابرون، يبلون بلاء حسنا ، ويقاومون بشراسة المحاولة الروسية الدائرة عليهم ، وقد راح ضحيتها الكثير ، فالله أكبر فوق كيد المعتدي .

وعلى صعيد آخر نرى مشهدا من المشاهد الكونية ، حيث تواصل الطبيعة جام غضبها على مناطق عديدة في بلدان مختلفة ... أمطار غزيرة تستمر لعدة أيام ، تتعرض فيها الأرض لانهيارات شديدة ، ينتج عنها إجلاء عديد من السكان ... فالله أكبر .

إنهم يكيدون كيدا والله يكيد كيدا، فمهل الكافرين أمهلهم رويدا . وما أحداث اليوم من الأمس بعيد ، حين بدأت مرحلة مظلمة في تاريخ يثرب ، استغرقت بضعة قرون قبل الإسلام ، لم تنطفئ فيها نار الحروب بين الأوس والخزرج . في كل حرب منها نلمح أثر اليهود في تدمير الوجود العربي هناك ، وكان عجبا من العجب ، أن تأتي " يثرب " بشرى السلام من مكة ، في الوقت الذي بلغت فيه معركتها بين الإسلام والوثنية ذروة احتدامها ، وبدأت صفحة جديدة بآية الإسلام التي من الله بها على المؤمنين الأنصار فأصبحوا بنعمة الله إخوانا.

ماذا كان يعتقد الأكاسرة والأباطرة ؟ أيدوم لهم العرش والملك والجاه والصولجان؟ أم حسبوا أن تكون لهم باقية بأموالهم وأهليهم ، فشغلوا بهما عنها؟ نسوا أن محمدا سيد العالمين قد مات ، ومرض صلى الله عليه وسلم، قبل وفاته ، وهو في حجر زوجه عائشة . رضي الله عنها . في مشهد مفعم بالأحاسيس التي تمس شغاف القلوب ، فقد عاش صلى الله عليه وسلم ، ومات إنسانا مثل كل البشر ، فها هو يولد ضعيفا ويغادر الحياة وهو يعاني المرض، يتلمس الحب والدفء الإنسانيين اللذين منحتهما عائشة، لم يمت محمد صلى الله عليه وسلم ، في ساحة القتال ، أو مقعد الملك والأبهة ، وغادر الحياة بهدوء كما أتاها . إنسان عادي ، ذو عبقرية منفردة مكنته من إنجازات فائقة خلال السنوات الثلاث والعشرين الأخيرة من حياته ، ترقى لمرتبة الإعجاز البشري لأنه آمن برسالته ، وأخلص لها ، واتبع طريق الحق، وتمكن من أجل ذلك أتباعه صلى الله عليه وسلم ، باتباع سبيله ، فأقاموا كيانا شاسعا ساده التقدم ، وخير البشرية.

(١٩)
(يا أبت افعل ما تؤمر ......)

" وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلم وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين " (الصافات ٩٩. ١١١).

الشباب اليوم في حيرة مما يحيط بهم من مؤثرات ، ومما يتفاعلون معه في حياتهم ، ومما يلقونه من الوسائل التربوية في مختلف الأماكن : البيت والمدرسة والشارع والأندية والرفاق ، وحتى دور العبادة . الشباب إناثا وذكرانا . ذلك أن الواقع المعيش اختلت فيه الموازين ، فإذا كان الطبيعي أن يتربى الفرد على ركائز ثابتة راسخة مستمدة من واقع البيئة السليمة القائم على الدين الذى يرسم لنا معايير التنشئة الحقة والنافعة . غير أن الاتجاه الآن يسجل انحرافا عن المعاني المستمدة من الإيمان والطاعة والتسليم بالمبادئ والأسس الدينية الحقة ؛ والطاعة والتسليم بالتربية النابعة من الأخلاق ، حيث الخير من وراء هذا الاعتقاد ، والعمل به ، ومن ثم يقوم كل فتى وكل فتاة بدور فعال ورائد في تكوين مجتمعه ، فالبذرة التي تسقى وتروى بماء العدل والحق، وتجد الرعاية والعناية حتى تنبت وتنمو ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، وينتفع بها من سيأتي بعد هذا الفريق الذى تولى صيانة هذه البذرة ، وأصبح قدوة ورمزا لغيره ، وهكذا إلى أن تعلو الفضيلة على كل السلوكيات .

من أجل ذلك كانت التربية في الأسرة الركيزة المهمة ، بل التي تعتبر في غاية الأهمية بالنسبة للأبناء . الشباب عامة والأطفال خاصة . فهم عمد البناء الرئيسة ، وحتى يظل ذلك البناء متماسكا يشد بعضه بعضها ، فلاتؤثر فيه الأنواء والأعاصير . وهما بمثابة الأخطار التي تحدق بهم في طريق مشوارهم . وحتى يبقى شامخا سامقا، لا ينهار لتيار جارف ، ولا يضعف لفساد عارض ؛ وإذا أردنا أن نوفر أدوات هذا البناء المتكامل ، فلن يكلفنا الأمر جهدا، أو مالا أو وساطة قد لا نقدر عليها ، وإنما يحتاج لشيء من التفكير والتدبر ، والتمسك بالمنهاج القويم ، والحدود المستقاه من الدين ، وحينئذ نعلم أن الأمر بيدنا ، ولا حاجة لعون آخر إذا استطعنا أن نغير ما بأنفسنا من الزيف المصطنع ، لأن الله سيغيره إلى أفضل ما يكون.

وأول شيء يجب الالتفات إليه، الأسرة وتكوينها التكوين الصحيح ، فهو النواة لكل صلاح بعد ذلك، وثاني الأشياء العمل وممارسته في إتقان وصدق ، وأسلوب التمويل والإنفاق ، ومراعاة الحق في ذلك ، وكيفية التعامل في شئون الحياة المختلفة، تأتي بعد التنشئة السليمة ، والحفاظ على كل ما وهبه الله لنا ، ولو أننا وقفنا على جانب واحد من جوانب تأسيس الأسرة، ومعرفة الحقوق والواجبات والأدوار لكل من الأم والأب ، لاستقام

عندئذ كل أمر فى مسيرتنا . ولحققنا غايتنا فى ظل الوئام والحب والطاعة المتبادلة . والامتثال لأوامر الله ونواهيه ، ورضاء الآباء والأمهات . عمد الأسرة الفاضلة . عندها سيجد الشباب طريقهم ، وسيحققون مآربهم لأنهم مشوا على الطاعة والتسليم بالمبادىء السامية ، والخلق الحسن ، فلن تجد مشهدا فيه نفور ، أو انحراف يؤدى إلى التفكك والتشتت والفساد، إنما تحديد يتله تجديد، وتغيير يتبعه تغيير ، وعودة إلى ما تربى عليه السابقون ، فخلقوا شبابا مكتهلا فى شبابه . كما قال عن شباب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبو حمزة الشارى" : "شباب مكتهلون فى شبابهم ، نظر الله إليهم فى جوف الليل ، وأصلابهم منثنية على مثانى القرآن ، إذا مرت عليهم آية من ذكر الجنة اشتاقوا إليها ، وإذا مرت عليهم آية من ذكر النار شهقوا شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيهم . أنضاء عبادة قد أكلت الأرض جباههم وأرجلهم من كثرة السجود والقيام " .

هؤلاء خلدوا مشاهد ومواقف عظيمة ، يقف أمامها المرء خاشعا مستعرضا ما وصلوا إليه من مجد لتمسكهم بمنهج الحق والعدل، فسادوا ورفعوا راية التقدم خفاقة .

ولنذكر موقفا جليلا كريما فريدا فى حياة إبراهيم عليه السلام ، بل فى حياة البشر أجمعين عندما بلغ السعى مع ابنه اسماعيل ، وقال : " يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال : ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين" . كلمات من شيخ لا يملك شيئا من الدنيا سوى زوجه ، وولده الذى قر به عينه ، وفرح به بعد أن سأل ربه الذرية المؤمنة، والخلف الصالح ، فاستجاب له، ووهبه غلاما حليما ، هو الآن يواجه أمرا شاقا ، وممن ؟ من أبيه الشيخ ، الذى يواجه هو الآخر نفس الحال ، بل أقسى من ذلك فهو الذى سيتولى ذبحه بيده ، ولو أن الأمر بيد غيره ، لربما اختلف الميزان . وتمر اللحظات ويتلقى كلاهما الأمر فى هدوء، وفى اطمئنان عجيب، ويطلب الأبن من أبيه أن يتروى فى أمره ، وأن يرى فيه رأيه ، ويأخذ الأمر طاعة وإسلاما ، فى رضا ويقين، لا قهرا واضطرارا ، لينال الخير الذى يراه أبقى من الحياة.

إنه يرتقى إلى قمة الصبر : قال : " ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين " . إنه الأدب الجم ، والطاعة الإيمانية ، والاستعانة بالله فى أدق اللحظات ، بعيدا عن البطولة والشجاعة ، راجعا الفضل كله لله . وما أحرى الشباب أن يتمثلوا هذه المعانى ، وأن يقتدوا بها ، وتكون شعارا لهم فى حياتهم . إن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل دخل حيز التنفيذ : " فلما أسلما وتله للجبين" . طاعة أخرى . حين يستسلم الغلام فلا يمتنع عن أمر أبيه . لقد أسلما . إنه الإسلام ، ثقة وطاعة وطمأنينة ورضا وتسليم وتنفيذ ... فأين الشباب من هذا الإسلام؟ وهل هناك ابتلاء أمر من هذا الابتلاء ؟ ويصبر الإثنان عليه ، ويعرف الله صدقهما ، " وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم " . ومضت بذلك سنة النحر فى الأضحى . .

درس للشباب ودرس لكل راع وكل مسئول . فالحياة لا تؤخذ لهوا ولعبا ، إنما هى هجرة إلى الله، هجرة كاملة ، فلنغير من حالنا،حتى يغير الله ما بنا من هم وكدر ، وضيق وكرب ، ولتصحح الأوضاع ، ولا يشغل الآباء عن أبنائهم ، ولا الأمهات عن فلذات أكبادهن ،

فيترك الأب بيته ليجمع النقود ، وتنصرف الأم عن مهامها، فنقع في المحظورات ، وتصبح العاقبة وخيمة ، وليحرص كل من الأب والأم على ألا يغيب ولده عن عينه ، في مراقبة وملاحظة دائمة وشاملة ، وتوجيه وإرشاد مستمر ، ليضمن بقاءه على ما استقاه من مبادئ ، ويدع وراءه كل عائق ، وكل شاغل ، طارحا خلفه كل شيء ، مسلما نفسه لرب العالمين ، ولا يستبقى منها شيئا ، موقن أن ربه سيهديه وسيرعى خطاه ، وينقلها في الطريق السليم .

إن الشباب في حاجة إلى وعي دائم . هو بخير وفي خير . ما تحققت فيه مقاصد الشريعة الإسلامية ، وتعمقت العلاقات الإنسانية ، ويعلم أن الله يبين لنا كيف السبيل إلى الراحة النفسية في تفريج الكربات ، وتخفيف الضوائق ، وتوطيد العلاقات الإنسانية ، وتثبيت الإيمان.

يقول سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، : " ألا انبئكم بما يشرف الله به البنيان ويرفع الدرجات؟ قالوا : نعم ، قال: تحلم على من جهل عليك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك" ، وذلك سمو بالإنسان والمجتمع ، حيث تتجدد العلاقات الطيبة بين الناس ، وتتواصل وسائل المحبة ، ويتحقق الاستقرار والخير للأمم والمجتمعات، ونشغل قلوبنا بأسرارها،ونربط حياتنا بسنتها ، ونسير في مستقبلنا على هداها ، لنحقق مراد الله فينا ، وأمل سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، منا ، فنتمسك بالشريعة الإسلامية ، التي تدعو إلى العمل الصالح ، و على التراحم و التواد والتعاطف ، وتنمو في نفس المسلم مشاعر كريمة تسمو به إلى آفاق الكمال ، وتذيقه ألوانا من الأمن والطمأنينة والثقة واليقين لإحسان العبادة.

إن الشباب والشابات الذين تراهم كشلال هادر ، يغدون بعشرات الألوف مع كل صباح إلى أعمالهم ، لا يزالون الآن في مرحلة البحث عن الهوية ، ولا تزال لديهم أسئلة كثيرة بلا إجابات ... ولا يزالون في مرحلة البحث أيضا عن مسارات لحياتهم ، وتوجهات لعقولهم ؛ فإن لم نأخذ بأيديهم إلى معرفة أسس الحياة القويمة ، فسوف تتلقفهم تيارات أخرى تستهدفهم ، وتسعى إلى الهدم والتخريب .

الفصل الرابع

خواطر إيمانية

(٢٠)
(وقال الإنسان ما لها)

تتعرض كثير من البقاع فى عالمنا الدنيوى ، منذ بداية هذا القرن لهزات أرضية عنيفة، بمستوى القياس البشرى ، وترتفع أعداد ضحايا هذه الزلازل العنيفة التى تضرب الأرض فيأتيها بأس الله ليلا أو نهارا ... وأهلها نائمون أو مصبحون ، فيقتل من يقتل ، ويصاب من يصاب ، ويحاصر أكثرهم تحت الأنقاض لا يستطيعون فرارا، مما يخلق حالة من الذعر بين الناس جميعا، وتشتعل الحرائق فى كثير من المنازل ، ويسمع زفيرها ، ويتصاعد الدخان منها ، :إنه ليل أليل :

سائل الناس عنهم والنهار   كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم   وكيف اصطلى مع القوم نارا

المشهد أليم لا نتبين منه أحدا ، يفزع له الناس من سباتهم ، يترقبون توالى توابعها التى قد يصل عددها إلى نحو ألف هزة ، وهم واجمون يرتجفون ، قلوبهم وجلة ، ونفوسهم مكتئبة، وصدورهم ضيقة حرجة ، ماذا عساهم فاعلون ؟ وهم الذين يمتلكون الأسلحة الذرية والنووية والكيماوية والنيترونية ، وكل ما هو تقنى حديث فى هذا المجال ... ولكن هيهات أن تدفع قوة البشر قوة الله ، فإن بطش ربك لشديد ، وإن الإنسان على ذلك لشهيد ... وإن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع ، فالأرض تمور مورا، والعيون شاخصة، والنفوس مترقبة ، فهلا اتقينا الله وعدنا إليه ليرحمنا ، ويفك كربنا ، ويلطف بنا فيما تجرى به المقادير؟ فإن مشاهد الدنيا نذير لأهلها حتى يثوبوا إلى الرشد والهداية فتنتشر الرحمة، ويسود العدل ، وتهدأ المكنونات فلا تجزع لأمر قضاه الله ، بل يرقبوه فى رضا ، خاصة عندما تواصل التوابع هزاتها ، فيكثرون من التكبير والتحميد والاستغفار والدعاء ، ويتخلون عن تهديداتهم ووعيدهم وظلمهم ، فيقفون مع الضعيف حتى يقوى ، ومع المظلوم حتى ينتصر .

إن ما مر كان مشهدا كونيا ، فيه تضطرب الأرض بمن فيها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، يهيمون فى الشوارع نصف عراة أو عراة ، وقد تملكهم الذعر والفزع والحيرة ، إلى أين المفر ؟ من هذا الموقف الرهيب ، وقد أصبح كل شىء قاعا صفصفا ... دكت المنازل ، واحترقت المبانى والمصانع ، وأغلقت الأسواق والدور والمؤسسات والمدارس والمعاهد، وكل باب كان مفتوحا ، ويطوف العسعس على الأحياء علهم بذلك يخففون أنة ، أو يمسحون دمعة ، وما هم بقادرين.

لقد صور لنا القرآن الكريم مشاهد مختلفة مما مر بالأمم السابقة من أحداث جعلتهم يتفاعلون إزاءها ، وهى تتكرر فى كل زمان لتكون عبرة وآية للذين يخرجون عن منهج الله ، ولقد كان يقينا أمام أعيننا ، وفى أسماعنا ، حين زلزلت الأرض زلزالها فى مصر عام ألف

وتسعمائة وثنتان وتسعون للميلاد ، فى الثانى عشر من أكتوبر، يوم الاثنين؛ وخرج الناس من كل صوب وحدب ، أبصارهم زائغهم ، وعيونهم شاخصة ؛ يقولون ربنا اصرف عنا العذاب إنا موقنون ... والصرخات تئن من تحت الأنقاض ، وتحسب الناس سكارى وما هم بسكارى ، تراهم وقد فروا يطلبون النجاة ... منهم من خرج كما ولدته أمه ، ومنهم من أمسك ببعض ما يملك ، ومنهم من يزحف على وجهه وبطنه . موقف تشيب له الولدان ، وتخر له الجبابر ساجدين ، يقولون ربنا لو أنجيتنا لنكونن من الشاكرين ، والله يعلم أنهم لكاذبون ، وسيعودون سيرتهم الأولى لو أنجاهم من هذا الغم ، ولكن هيهات فقد ملأ الرعب قلوبهم ، والخوف صدورهم ، والوجل نفوسهم ، وأصبحوا خائفين يترقبون بطش الله ويحسبون كل صيحة عليهم ، فتفرق جمعهم وتبدد شملهم ، وأصبحوا يتسابقون لريح تعصف بهم ، أو موج يقتلعهم، أو رعد يجعلون أصابعهم فى آذانهم ، وما هم بفارين من الله ... ويتعالى صوت الحق مجلجلا ، ويذكرهم بيوم أشد وأقسى:

" إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها يومئذ يكون الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" (الزلزلة ١-٨).

هنا تزلزل الأرض لقيام الساعة ، وقد أنذر الله بها من قبل ليعرف الناس قصة الأرض وأنها آية من آيات الله . إن الأرض تنبئ أخبارها بالزلزلة والرجة ، بوحى من الله عز وجل، ليسترجع الناس أعمالهم،التى يعد بها الله لهم من كرامة أو عذاب ، أفلا تكون فى حياتنا الدنيا مؤشرا لهذا الإعداد؟

الناس جميعهم فى خوف ، كأن الموت يقدمهم ، مطبق الأرض ، تغشاهم سدف من ليل العجاج ، يتصورون أنهم مدركون، وليس بخارجين منها إلا وهم يصطلون ، وما زلزال تركيا الذى أسفر عن مصرع آلاف الأشخاص، وإصابة أضعافهم ، بغريب ونحن نرى عجز المنقذين عن مساعدة من تحت الأنقاض بوسائلهم المتعددة والمتخصصة ووقوف العالم كله وتحركه للنجدة والإغاثة، ومع ذلك لم يقاوم الدمار، أو تقلل الخسائر التى قدرت بالمليارات، وشكلت الضحايا مشكلة فى وقتها لكثرة عددها، فإذا كان هذا حال الموتى، فما بال الأحياء الذين تشردوا ، وأخذوا يبحثون عن ملجأ لهم يعصمهم من الخطر ، فالأمر جد جلل، والملايين تعيش فى العراء بعد أن بادت قراهم، وحطمت بيوتهم ، وصاروا بلا طعام ولا ماء، ولا سقف ولا جدران ...

لكن هو الله، يريد أن يخاطب عباده فيسمعوه ، يا عبادى أنيبوا إلى، فأنا ربكم وإياى فاعبدون، لا تميلوا لغير الحق فيحفكم ، ولا تغتروا بمفاتنكم وزينتكم فيأخذكم الهوى، فمتاعها قليل، وما خلقكم لهذا تعبثون ، فإن أطعتمونى جعلتكم فى أمنى ورحمتى ، وإن عصيتمونى سلطت عليكم عذابى ونذر.

إن الغرور والزهو بالعلم والمال والتقدم متحطم فى ثوان قليلة ، فالصور تكشف عن يد جبارة تبدل وتغير فى ثوان معدودات ، وتقلب موازين كل شيء وتعز وتذل: "قل اللهم

مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير " (آل عمران ٢٦) .

حكمة بالغة.

إن الغضب الإلهى ، عقاب الله ، وتخويف للبشر وإنذار لهم ، وهو امتحان من الله لعل الناس يجتازونه بسلام . لقد خسف الله بقارون الأرض حين بغى وطغى ، وظن أن ثراءه جاء نتيجة علمه ، وخسف بمدن لوط وقراهم بسبب ذنوبهم ، فصار عاليها سافلها ، وأغرق قوم نوح بالطوفان فلم يدرك النجاة إلا من اتقى الله ورعاه.....

ستعجز أيها الإنسان عن فهم حكمة الله تعالى ، أو إدراك سره العميق ، وهدفه الحقيقى ..

ادعوا الله أن يلطف بالعباد ، ولا توهموا أنفسكم أيها الخبراء بأنكم ستستعدون لبأس الله بمعداتكم وأجهزتكم وعلمكم ، وتجهزوا مدنكم لتحصنكم ، فأنتم واهمون ، فلو كنتم فى بروج مشيدة لأدرككم أمر الله ، وأنتم سامدون ، ولكن اسجدوا لله واعبدوا فذلكم النجاة.

(٢١)
(الإسلام .....استسلام وخضوع)

يولد المولود فينا ، وأبواه هما اللذان يهودانه أو يمصرانه أو يمجسانه : " ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما " (آل عمران ٦٧) ، فطرة ينشأ عليها الإنسان ، فيكون مسلما لله ، ثم يتعلم أصل هذه الديانات ، ويعرف أسرارها ويعتنقها ، وقد أنعم الله على خلقه بأن جعل أمة محمد على الإسلام ، وجعله فيهم صلى الله عليه وسلم ، رسولا خاتما ، ينشر معجزته القرآن ليكون للناس نورا وضياء ، وسراجا وهاجا على مر الأزمان يهديهم صراطا مستقيما ، هذا الصراط الذى ندعو به ونحن نؤدى فريضة الصلاة : " اهدنا الصراط المستقيم " سبع عشرة مرة ، غير النوافل . الصراط الذى ناله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قبل، وأعطاه الله إياه حيث قال : " يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم " ، وبالقرآن أيضا . معجزة الرسول . تنشرح الصدوروهوما اختص به رسول الله حين قال عز من قائل : " ألم نشرح لك صدرك " .

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كيف يشرح الله الصدر ؟ قال : يدخل فيها النورفيتفسح ، قيل : وهل لذلك علامة ؟ يارسول الله ؟ قال : التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل الموت. هذا هو القرآن ، دستور الإسلام والمسلمين ، الذين اتخذوا منه اسما فظنوا به أنه ميزهم وخصهم عند الله من غيرهم ، ومن ثم فهم فى حل من التكليف، فجعلوا يتيهون فى كل واد بالظلم والطغيان : لا يقيمون شرعة الله ومنهجه ، ولا يتبعون حدوده ؛ ونسوا إنما سمى المسلم مسلما بخضوع جوارحه لطاعة ربه، وأن هذه الطاعة تتمثل من خلال سلوكيات البشر، واتباع التعاليم والمبادئ التى جاء بها القرآن ، ونادى بها سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، فخضعت لها العقول ، وعلمهم أن الطاعة والذلة لله هى التى تؤدى إلى صلاح الأفراد فيما بينهم ، هو الدين عند الله ، الإسلام بمعناه الكبير ، فحين يقول الحق تبارك وتعالى: " إن الدين عند الله الإسلام " (آل عمران ١٩) ، إنما يراد بالإسلام الاستسلام والخضوع لله،فمن تعلم ذلك لن يبطش ، ولن يظلم ولن يكون جبارا فى الأرض ، أو طاغيا عليها ، يسلم وجهه لله وهو محسن فتكون الجنة له .

هذا هو صحيح الدين عند الله الذى ندين به، وتفسير الإسلام الذى نسمى به ومن قبلنا يسمى الطائعون الخاضعون والمستسلمون لله .

وساورد بعضا من الآيات التى تدل على هذا التفسير من القرآن الكريم ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى :

" هو سماكم المسلمين من قبل " (الحج ٧٨) . الله سماكم المسلمين من قبل نزول القرآن ، فى الذكر وفى الكتب كلها وفى هذا القرآن .

المسلمون المذعنون لتفعل، ولا تفعل، المطالبون بتطبيق كلمة الحق والعدل ، والمستمسكون بالفضيلة ، والبعيدون عن الرذيلة التى تودى بالمسلم ، وما أقسى ما نراه حولنا من فساد ، ومما يحدث من خلال بعض المؤتمرات التى تنادى بإباحة الجنس ، وشرعيته ، وعلى حرية كل شيء فى هذا النظام الذى يشكل التطور فى مفهومهم ، متعدين بذلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فليس من الدين فى شيء .... وسيكون كما قال الله تعالى فى سورة القلم :

" أفنجعل المسلمين كالمجرمين " .

لقد أصبح الجنس يثار فى المؤتمرات ، وأصبح الكتاب يتناولونه بأقلامهم فى غير ما تحفظ ، ويعتمدون فى كتاباتهم على الإثارة حتى يقبل عليها الذين يجدون فيها بغيتهم ، وكذلك الإعلام الذى يفتح قنواته لمن يشاء أن يتزود من هذا الفضاء ، صغيرا كان أو كبيرا ، إناثا وذكرانا ، فالبيوت مشغولة بهذا التجديد ، متأثرين بهذا النظام ، فلا غرابة مما يدور فى ساحاتنا من أمور هى فوق تصور البشر : قتل واغتصاب ، سرقة وغش ، وانهيار ودمار . وضاع منا الطريق ووطأت الأقدام طريقا غير الطريق ، فلا كتاب ولا شهيد ولا رقيب ولا خضوع إلا للشيطان : " ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء هدى ورحمة وبشرى للمسلمين" (النحل ٨٩) .

أخلصوا لله ، وأذعنوا له بالربوبية والوحدانية ، تكونوا مسلمين ، وتحملوا هذا المعنى الذى نزل فى القرآن وكان من قديم ، ويدل عليه كتاب سليمان بن داود ، الذى أرسله إلى بلقيس ، وكانت بأرض يقال لها : " مأرب " من صنعاء على ثلاثة أيام : " قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين" (النمل ٢٩. ٣١) وتأخذ الآية (٣٨) من السورة نفس المعنى : " قالت أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين" أى طائعين ، ويستمر المعنى : " فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين". مسلمين به من قبلها ، وبالذين دانو بدين إبراهيم ، كما قال فى الآية (٩١) : " إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين" .

ولقد آمن المؤمنون من قبل بما جاءت به الأنبياء من الكتب ، وببعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وصفته فى كتبهم ، فكانوا مسلمين : " وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبل مسلمين " (القصص ٥٣) . كنا مؤمنين بما جاءت به الأنبياء من الكتب ، وببعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وصفته : " وأمرت لأن أكون أول المسلمين" ، أمرنى ربى بذلك لأن أكون أول من أسلم منكم ، مفردا بالطاعة لله عز وجل ، فالمسلم من خضع لله بالطاعة ، وذل له بالعبودية : " وقال إننى من المسلمين " المستسلمين لأمر الله ونهيه ، المنقادين لحكمه :

" وإنى من المسلمين" .

إن التطور التكنولوجى السريع هو الذى جعلنا لا نثق إلا فيما نلمسه بالعين واليد، إن الذى لا نعرفه كثيرا ، إنما العودة إلى الإيمان العميق تجعلنا ندرك كل ما لا نعرفه بما نعرف

من أمور ديننا ، وأن هناك أشياء لا يتدخل فيها العقل ، مثلما تدخل في أشياء لا تدرك إلا به؛ فالوصول للمعرفة لها وسائل متعددة ، وأساس هذه الوسائل بعضها العقل ، وبعضها الإيمان ، فإن آمنت كنت من المقربين الذين يهديهم شعورهم الداخلى ، بالعدل والخير، فالذى نعلمه بالقياس إلى ما لا نعلمه ذرة رمل على شاطئ محيط.

وإذا كانت الحواس الظاهرة هى أدوات العقل لكى نتبين الطريق ، فإن هذه الأدوات تستمد قوتها من الأبدان ، أما الخواص الباطنة فتستمد غذاءها من النفوس والأرواح . والذين اعتمدوا على حواسهم الظاهرة ، واقتصروا عليها وأنكروا ما عداها ، ضيعوا حواسهم الباطنة ، وفقدوا كثيرا من قدراتهم ومواهبهم التى منحها الله لهم ، وبالتالى فقد سترت عنهم حقائق عديدة ، فما أكثر ما نعلم عن حياتنا ، وما أكثر ما نجهل ما بعدها . وأخطر أنواع الألم فى الدنيا ألم البعد عن الله كما يراه المحبون ، لا ضير على الإنسان طالما كان قريبا من الله ، فإذا ابتعد عنه وقعت الطامة الكبرى : " الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم " .

إن هذا الإدراك قد صبغ كل تصرفاتهم ، وكان سببا فى تغير سلوكهم ومشاعرهم ، فلم يعد أحد ينظر إلى الموت ، النظرة نفسها التى يراه بها الناس ، وكذلك النظر إلى الله.

إن بعض الناس يظن رقدة الموت ضجعة فيها راحة من العيش المضنى ، ولا عناء بعد ذلك ، وأن الموت نهاية صارمة لحياة ثمينة ، وليس بعده قيام ، بينما يرى المحبون الموت مقدمة لحياة خالدة باقية ، أبقى وأحسن من حياة ضعيفة ، لا تزيدنا إلا خسارا . إن الله وهو الصمد ، الذى يقصد بابه فى كل وقت ، وحين تستنفد الأسباب وتتقطع،ولا يكون هناك إلا هو ، الواحد الأحد ، الذى لا يسلب نعمة أنعمها ، إلا ليأتى بأحسن منها ، ويعطى خيرا منها : " بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه " (البقرة ١١٢) ، " ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن " (النساء ١٢٥) .

إن الطريق إلى الله يمر بقلب الإنسان ، والقرآن يقيم الدليل على هذا المفهوم إقامة قطعية ، ويصف مريديه بصفات الخضوع والاستسلام ، على ملة إبراهيم أبينا عليه السلام .

" فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا" (الجن ١٤) .

" فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ " (آل عمران ٢٠) .

" وأمرنا لنسلم لرب العالمين " (الأنعام ٧١) " .

" وأمرت أن أسلم لرب العالمين " (غافر ٦٦) .

" كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون" (النحل ٨١) .

" ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى " (لقمان ٢٢) .

ولا أرى بعد كل هذه الآيات ، التى تشير إلى المعنى السابق ، معنى التذلل بالعبودية لله ، والإقرار بالألوهية ، والخضوع والطاعة والاستسلام لرب العالمين . مدخلا لأى طريق آخر إلى الله غير هذا الطريق . .

(٢٢)
(الريح .... الملك العظيم)

الريح آية من آيات الله فى الكون ، يراها الإنسان ويشعر بها ، ويحس بآثارها ، فهى القوة الكبيرة التى لا تضاهيها قوة ، فإذا رأيت الريح قد سكنت وهدأت فتلك آ ية أخرى، آية لتستمر حركة الحياة فى الكون ، فالفلك التى تجرى فى البحر بأمر الله ، لو اعترضتها الرياح لمنعتها من السير ولتوقفت حركة الناس ، وأيضا بالنسبة للفضاء الجوى، وما يجرى فيه من حركة الطيران ولكن الله يثبتها فى موضع واحد ، حتى تأخذ السفن السائرة فى البحر مسارها ، وكذلك الطائرات السائرة فى الجو مسارها فى أمن وسلام . وفى ذلك آيات . وماذا كان يكون لو أن الريح والعواصف استمرت فى شدتها؟ إنها رحمة الله بعباده الذين يجدون فى كل ما حولهم آية ولكنهم لا يبصرون ، فتسكين الريح آية ، وشدة الريح آية ولو ظلت الريح على واحدة من هاتين الحالتين لفسدت الحياة .

إن أنحاء عديدة من دول آسيا وأمريكا الشمالية ، تشهد كوارث طبيعية مثل الأعاصير، والرياح، والزلازل، حيث يلقى العديد من الأشخاص مصرعهم ، وتدمر عشرات المنازل، وتسقط الأمطار غزيرة ، وتبلغ الرياح سرعة ٣٠٠ كيلو متر فى الساعة، مما يؤدى إلى تزايد الإصابات والدمار ، ومن ناحية أخرى تسبب الزلازل خسائر جسيمة ، وينتج عنها عدة انهيارات أرضية ، ومصرع كثير من الأفراد . وقد يلاحظ استمرار الاضطراب الشديد فى أحوال الطقس بمختلف أنحاء العالم مع بداية القرن الحادى والعشرين ، وتشير تقارير وكالات الأنباء فى عدة عواصم عالمية إلى التباين الكبير فى أحوال الطقس من منطقة إلى أخرى ، من مثل ارتفاع درجات الحرارة لأعلى من مستوياتها المعتادة ، وكذلك انخفاض درجات الحرارة ، وهذا الاضطراب يؤدى إلى خسائر عالية ، بسبب موجة الحر الشديدة وسرعة الرياح ، والعاصفة المغناطيسية المرتبطة بالانفجار الشمسى، التى تتسبب فى إطلاق الجزيئات التى تحمل شحنات كهربائية ، وتؤثر سلبيا على عمل أقمار الاتصالات وشبكات توزيع الكهرباء ، وفى حين تعانى مناطق من ارتفاع حاد فى درجات الحرارة ، تشهد مناطق أخرى تراجعا كبيرا فى حرارة الجو ، وكل ذلك يؤدى إلى خلل فى حركة الحياة العادية .

من هنا دعوة إلى العودة ما صوره القرآن الكريم فى مثل هذه المواقف ، فيقول سبحانه وتعالى فى سورة (يونس) : " حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان " (يونس ٢٢) ثم يقول رب العزة فى سياق آخر " إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور" (الشورى ٣٣).

إن مدلول كلمة " الريح " الشدة والقوة ، ولو استمرت على شدتها وقوتها لهلك كل شىء ، فتكون الآية الأخرى التى تجعل من هذه القوة الأمن والسكينة ، فتصبح الريح طيبة لتجرى حركة الناس فى يومهم بصورة طبيعية ، وليعلموا قدرة الله حيث جعل من العسر

يسرا، ومن الضيق فرجا ، فالأصل فى الريح القوة ، ولكن من آيات الله أن يأتى من القوة أمر طيب يستريح له عباد الله .

من أجل ذلك جعل الله هذه القوة ملكا لسليمان عليه السلام فأعطته عزة : " ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب " (ص ٣٤. ٣٥) .

ملك لا ينبغى لأحد من بعده ،من بعده إلى يوم نلقى الله، ملك يأتيه بلا حرب أو قتال ، وكان الله قد فتنه بالخيول والجياد التى عرضت عليه، وامتحنه الله بمولود ، فشغفه حبا فجعل يهتم ويتغالى فى العناية به ، فقتلته الشياطين وألقته على كرسيه جسدا لا حراك به، فأدرك سليمان ، أن الله امتحنه به ، فرجع إلى الله ثم دعاه بهذا الدعاء ، واستجاب الله له فوهب له ملكا لا يتسهل مثله لأحد من بعده ، ملك الريح ، تسخر له ، تجرى تحمله وهو على بساط له ، وخاصته حيث أراد : " فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب "

هى الريح ، التى تدمر وتقهر ، وتصيب لعل الناس يتنبهون أو يعقلون ، فتهدأ النفوس، وتقر العيون ، وتسعد القلوب، إنما هى الغفلة التى تبعدهم عن التدبر ، وعلى قلوب أقفالها:" لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها (الأعراف ١٧٩).

إن هذا الملك العظيم ، الذى سخر الله فيه الريح لسليمان، إلى انتصاف النهار مسيرة شهر ، ورواحها شهر من انتصاف النهار إلى الليل ، فكان يسير فى كل يوم مسيرة شهرين ، فالريح ذهابها شهر ، ورجوعها شهر مسخرة لسليمان تحمل بساطه هو وخاصته من فوقه إلى حيث يشاء :" ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين " (الأنبياء ٨١) . والأرض التى بارك الله فيها بالشام . ويقول الحق تبارك وتعالى أيضا فى هذا الملك : " ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر " (سبأ ١٢).

ولعلنا ندرك أن هذا الملك له من القوة ، مالم تكن لغيره ، وأن هذه القوة مستمدة من الريح . جند سليمان وعدته وعتاده ، وجيشه وسلاحه ، شديدة عنيفة ، تقصف كل ما تصادفه ، وتدمر كل ما تمر عليه ، وتقف كل القوى عاجزة أمام هذه القوى ، فلا يستطيع تقدم تقنى أو غير تقنى ، متطور أو حديث ، أن يقاوم هذا السلطان، فأى قيمة لهذه الريح ؟ وما السر الدقيق الذى قد يكون من وراء هذا الملك الذى طلبه سليمان من ربه ؟

إن المشاهد التى يعرضها القرآن الكريم فى الآيات التى تبرز أحداثها كلمة "الريح" توحى بالقوة العظمى ، قوة القوى التى لا يستطيع الإنسان مجابهتها، أو مقاومتها فاضطراب الأحوال الجوية التى نمر بها، تلفتنا للحظة إلى الله ، لأنه لا بر يقينا ولا بحر عندما تغضب السماء . فمثل هذه القوة التى يختص بها الله سليمان ، عليه السلام ، فتصبح ملكه الذى تمناه ، ولعله أراد بذلك أن يطلعنا على حب الله لسليمان ، نعم العبد الأواب ، فهو الذى لا يهاب الريح التى لوشاء الله لأغرق الناس بها، والتى تقصف كل ما أمامها ، ويصبح الناس فى ذعر وهلع ، يدعون ربهم أن يخفف عنهم ما يصيبهم منها ، فهى من جنس التعذيب.

إن هذه الريح التى نخافها، ونتحصن من آثارها، ونواجهها بوسائلنا المعاصرة والمتقدمة، تسخر لسليمان ، بل ويكون مالكا لها ، وكذلك كل عبد أواب يستطيع أن يملكها ، وأن يملك رحمة ربه منها .

أرأيت إلى هذه الخاصية التى كانت لسليمان ، خاصية لا ينبغى لأحد من بعده أن يحظى بها ، فهى الملك الذى ميزه الله به عن غيره ، ولكن هل تميز أحد من قبل سليمان بهذا الملك ، فكانت له الريح تجرى بأمره ؟ أو تميز بملك أقوى من هذا الملك؟ إننا لم نجد أحدا من قبل سليمان سخر له الله الريح تجرى بأمره ، والباب مفتوح لمن أراد أن يدلى بدلو هذا التساؤل : " والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم " (البقرة ٢٤٧) .

لقد بعث الله طالوت ملكا ، وآتى داود ، الملك ، ويوسف وآل إبراهيم ودل آدم على ملك لا يبلى ، أما فرعون ، فقد نادى فى قومه بأن له ملك مصر ، يدلنا على ذلك آيات القرآن الكريم التى يقول فيها الله تبارك وتعالى:

فهذا ملك " طالوت " : " وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم " (البقرة ٢٤٧) .

جدال من بنى إسرائيل حول الملك لمن يكون ؟ وأيهم دائما فى معالجة القضايا ومناقشتها واتخاذ القرارات فيها ، وصدق الله العظيم حين قال : " ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين " (البقرة ٢٤٦) . ثم أخبرهم نبيهم بطالوت ملكا ، وكانت بنو إسرائيل تقدم بين أيديهم تابوتا عند القتال ، فلا يقوم لهم أحد : " وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين " (البقرة ٢٤٨) .

" والسكينة" هنا هى ريح لها وجه كوجه الإنسان ، وهى تختلف عن ريح ملك سليمان ، واختلف فى ذلك ، وأولى الأقوال فى معنى " السكينة " أنها الشىء تسكن إليه النفوس من الآيات التى يعرفونها .

أما ملك " داود" فقد جاء ذكره فى هذه الآية : " وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء " (البقرة ٢٥١).العلم والحكمة يبنى عليهما الملك ، ويؤتيهما الله من يشاء من عباده : " أم يحسدون الناس على ما آتهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما " (النساء ٥٤) .

والكتاب هو العلم ، وقيل عن الملك العظيم هو النبوة ، وقيل ملك سليمان عليه السلام ، وحكمة التفضيل فى أن من يفضلهم الله من الناس على غيرهم ، يرجع لتكوينهم ، ونظرتهم إلى الاستقامة ، وتيسير الأمور وتسييرها : " أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا " (النساء ٥٣) . فلو كان لمثل هؤلاء ممن لم يفضلوا نصيبا منه لم يؤتوا من

بخلهم أقل القليل ، ويمنعون الخير عن النساء والرجال ، والصبية والشيوخ ، وهم بذلك ليسوا أهلا لفضل الله ، الذين يشكرون الله على ما آتاهم من فضله ، ويدعونه بمثل دعاء سيدنا يوسف : " رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين " (يوسف ١٠١) .

أعطاه الله ملك مصر، وعلمه عبارة الرؤيا ، ومع مكانته كملك ، فقد تمنى الموت ويلحق بآبائه صلى الله عليهم . قال ابن عباس : ما تمنى قط نبى قبل يوسف الموت ، وهو الشاكر لنعمة الله ، والعارف بأن الله يزيد من يشكره من فضله ، ألم يشدد ملك داود ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب : " وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب " (ص ٢٠) .

وإذا كان الله قد أعطى سيدنا سليمان عليه السلام ملكا عظيما لا ينبغى لأحد من بعده ، فقد دل آدم عليه السلام على ملك لا يبلى : " قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى " (طه ١٢٠) وليس هذا سؤال موجه لسيدنا آدم ، بقدر ما هو واقع من الله بالحق ومؤانسة لآدم إعزازا وتقديرا له .

أما "فرعون" فقد نادى فى قومه : " قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى " (الزخرف ٥١) . من أعطاه هذا الملك ؟ ومن آتاه هذا الفضل ؟ إن الله لم يمن عليك به ، ولم تكن ممن منحهم الحكمة والعلم ، وفصل الخطاب ، إنك تعلن باسمك عن نفسك لقومك ، وتظن الظنون التى تخيل لك القوة والعزة والمتعة ، وما أنت ببالغ شيء مما تطلب : " ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض " (غافر ٢٩) فالناس يطمعون فى الملك ، وينسون فضل الله عليهم لأنهم يتيهون فى الترف والنعيم ، وتشغلهم أموالهم وأهلوهم ، من أجل ذلك هم فى حاجة لمن يذكرهم بأنفسهم وبنعمة الله عليهم : " وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين " (المائدة ٢٠) يذكرهم بهذا النعيم ، والملك الكبير ، الذى يفتن به الناس ، وما دروا أن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وأن بيده الخير ، وأن النعيم الحقيقى فى حب الله ، وفى رحاب الله ، يوم يكون الملك له ويرجع الأمر إليه : " لمن الملك اليوم لله الواحد القهار " (غافر ١٦) هناك يكون النعيم المقيم ، حيث الخلود: " وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا " (الإنسان ٢٠-٢١) .

هذا ملك الله فى الدنيا ، يؤتيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، وهذا ملك سيدنا سليمان عليه السلام ، الملك العظيم القوى ، المتمثل فى " الريح " .

إن مثل هذه القوة أمر لا يستهان به ، ولكننا نمر عليها دون أن ندرك مغزاها وسرها ، ولو أن الأمر هين ما جعله الله لسليمان آية ، وما كان إلا لمثل سليمان إجابة لطلبه بعد الدعاء ، ولنا وقفة مع الآيات التى تعطينا صورا من صور ما تفعله الريح بقوتها وشدتها فى مشاهد مختلفة لازلنا نراها لتكون لنا آية .

فهذه صورة من صور القوة فى الريح ، ينقلها إلينا قوم " هود" عندما أنذروا بالأحقاف ألا تعبدوا إلا الله حتى تكونوا فى مأمن من عذابه ، ولكنهم قالوا لهود عليه السلام : " أجئتنا

لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء ، بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون" (الأحقاف ٢٢- ١٦)

لقد مكن الله لعاد فى الدنيا ، وأعطاهم من كثرة الأموال ، وبسطة الأجسام مالم يعطه لمشركى قريش ، وتلك تجربة يسوقها الله عز وجل ، لقوم هود لعلهم يسمعون أو يبصرون أو يعقلون حتى لا يمسهم العذاب ، فلما جاءهم عذاب الله الذى يستعجلونه لم يحسبوه إلا سحابا عارضا فى ناحية من نواحى السماء ، وما هو إلا هلاك ودمار لهم ، فأصبحوا لا يرى فى بلادهم شيء إلامساكنهم،ولقد ذكرناهم بعاد ، فلم يعتبروا بقول الله : " وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم " (الذاريات ٤١) . وقوله سبحانه وتعالى : " وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية " (الحاقة ٦) تلك " عاد" التى استكبرت على الله فى الأرض بغير الحق: " وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون" (فصلت ١٦). وفى سورة" القمر" يبين لنا الله حال" عاد " التى كذبت بالذكر قائلا : " كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر "(القمر ١٩) .

فإذا كانت هذه تجارب يسوقها الله لأمم بعينها ،فإنها تساق أيضا لكل أمة ، ولكل الناس فى كل عصر ومكان ، وإذا كان الناس فى شك من قدرة الله ورحمته ، فليتأملوا أمثال الله التى ضربها للناس لتكون لهم دليلا ومدخلا إلى التصديق والإيمان. التصديق برحمة الله وقدرته ، وإن ساوركم الشك فى ذلك ، فانظروا أمامكم ، وفيما حولكم من الواقع الذى تعيشون فيه ، فستجدون الحقيقة التى لا مراء فيها ، فما تزرعونه . مثلا. بأنفسكم من نبات وزرع كان مخضرا يافعا ، أصبح مصفرا قد فسد من بعد استبشاركم ، وما كان ذلك إلا من ريح أرسلها الله فجعل بها من بعد حياة موتا ،وهوالذى يجعل أيضا من بعد الموت حياة : "ولقد أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون" (الروم ٥١) .

ويذكر الله فى سورة (الأحزاب) المسلمين الذين حوصروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أيام " الخندق" عندما جاءتهم جنود قريش وغطفان ، ويهود بنى النضير ، فأرسل عليهم الله ريحا هى الصبا، وكان من فوقهم " عيينه بن حصن " فى أهل نجد ، ومن أسفلهم " أبو سفيان " فى قريش ومن تبعه ، فزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر من الرعب والخوف ، وتظنون بالله الظنون الكاذبة ، وأن ما وعد الله لرسوله من النصر لن يكون . هنالك محص المؤمنون واختبروا ، وعرف المؤمن من الكافر ، وحركوا بالفتنة تحريكا شديدا ، يقول فيهم عز من قائل : " يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا إذ جاءوكم من

فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا " (الأحزاب ٩-١١) .

فمن جنود الله ما نراها ، ومنها ما لانراها ؛ والريح من أشد جند الله ، وكذلك الجبال والحديد والنار والماء والسحاب ، يسخرها الله للمؤمنين فتكون لهم نعمة ، ويرسلها على غيرهم فتكون لهم وبالا وشرا . أرسلها على عاد وثمود ، فأهلكهم بها ، وسخرها للفلك تجرى بالمؤمنين في موج كالجبال وقد شخصت الأبصار من هول ما ترى ، ولا ينجو من عذاب ربك إلا من اتقى.

فإذا قرأت آية فيها ذكر الريح فاعلم أنها لا تنبئ إلا عن شر، وإذا قرأت آية فيها ذكر الرياح ، فهى لا تنبئ إلا عن خير ، لأن الريح مفردة من جنس التعذيب ، ومجموعة من الرياح فهى من الرحمة ، ولنضرب مثلا بمشهد متحرك عاصف ، تجسمه كلمة " الريح " وتبلغ في تحريك المشاعر له مالا تبلغه الألفاظ الأخرى في تصوير ضياع الأعمال وذهابها ، إنه مشهد ينطوى على حقيقة ذاتية في أعمال الذين ينكرون على الله أوامره ونواهيه ، فالأعمال التى لا تقوم على أساس من الإيمان ، ولا تمسكها العروة الوثقى التى تصل العمل بالباعث ، وتصل الباعث بالله ... مبعثرة كالهباء ، والرماد ، لا قوام لها ولا نظام ، فليس العمل هو الأساس ، ولكن باعث العمل ، فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة إلا بالباعث ، والقصد والغاية ، وهنا يلتقى المشهد المصور مع الحقيقة العميقة ، وهو يسوق المعنى فى أسلوب شائق موح مؤثر " مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد " (ابراهيم ١٨) .

إن كلمة الريح هنا جسمت لنا الشر الذى انطوت عليه ، حتى أن الناس لم يستطيعوا مجابهته ، وأصبحوا عاجزين عن كسب شىء وسط هذا الريح العاصف ، فالريح هو القوة أيا كانت ، القوة التى لا تبقى على الرماد إذا تعرض لها " إنه الضياع ، ضياع أعمال الذين يكذبون بما أمر الله ونهى ، ويكفرون بالعقل ، ويؤمنون بالطاغوت ، يكفرون بالحقيقة ، ويعتقدون فى الباطل ، يكفرون بالواقع ، ويهيمون فى الضلال ، مثل هؤلاء لايستطيعون الإمساك بشىء من أعمالهم ، ولا الانتفاع بها أصلا .

وهكذا لا تنبئ الريح إلا بعذاب، وهى قوة يسلطها الله على من يشاء، ويرحم بها من يشاء ، إنه يقول عز من قائل :

" فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات " (فصلت ١٦)

" أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر" (القمر ١٩)

" إذ جاءتهم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها " (الأحزاب ٩)

" ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون " (الروم ٥١)

(٢٣)

(عبقرية الفنان وتصوير القرآن)

للغة أهميتها فى الحياة الاجتماعية ، وهى بنت المحاكاة ، والأمر سهل عندما نستخدم الكلمات للدلالة على الأشياء الخارجية ، لأن الكلمة والشىء كليهما يكونان من قبيل الكائنات المادية ، لكن الأمر لا يكون بالسهولة عندما نستخدم الكلمات للدلالة على الحالات الشعورية الداخلية .

واللغة تكشف عن طبيعة الأمم والشعوب ، وهى ظاهرة تحمل لنا أسرار الحضارات على مختلف العصور،فإذا عدنا إلى المجتمعات القديمة من قبل الإسلام ، نراهم قد عاشوا فى أرض منبسطة واسعة ، لا يحدها حدود ، ولا يحجبهم عنها حاجب ، فلا توجد بنايات شاهقة ، تحد من مدى رؤيتهم ، أو تحجب عنهم سحر الطبيعة وجمالها ، كما نراه اليوم فى مدائننا ، فليس هناك ما يفسد عليهم حياتهم ، ولا ما يلوث نفسيتهم ، فالهواء صالح للتنفس ، والأرض مهيئة للتنقل المريح والمكان معد للقاءات بكل مظاهره المتاحة للإنسان،حيث الشعور بالأمن والأمان والطمأنينة ، فكل ما حولهم رائق البهجة لا يبعث إلا على الانشراح والسعادة ؛ ومثل هذه الحياة التى يحياها العربى القديم تدفعه إلى أن يفكر فيما حوله ، وأن يتأمل ويتدبر . من أجل ذلك خلقت الفنان المتطلع للكون وما فيه وما عليه ، فتفكروا فى أول مظهر من مظاهر مقومات الحياة عندهم ، وكيف أن الطبيعة هى التى تمدهم بكل الوسائل التى تعينهم على مزاولة معيشتهم ، وأخذوا من ثم يواجهونها ، ويحمون أنفسهم منها، وجعلوا يتوافقون معها ، حتى لا تضيق بها أمورهم ، وتضطرب بها ظروفهم المعيشية ، فكان لابد أن يقفوا على بعض هذه المظاهر التى يواجهونها ، من مثل الرياح والسحاب والأمطار والبرق والرعد، ودلالة هذه المظاهر فى حياتهم ، وقد فاقوا فى معرفتهم لهذه الظواهر غيرهم من أصحاب التقنيات الحديثة . فأنواع الريح مثلا يعرفونها معرفة دقيقة ، ويعرفون متى تكون عاصفة أو باردة، أو محملة بالرمال والأتربة ، ومتى تأتى من أعالى الجبال ، أو من الأنواء المختلفة كنوء الجوزاء ، وكنوء السماك ، أو تأتى من الشمال فتصبح باردة عن غيرها ، وماذا لو التقت الريح بالريح ، وتساق إلى السحاب وقطعه التى يدفع بعضها بعضا فى سرعة وكيف أن هذا السحاب يكون أسفله متراكما حتى يخرج منه الماء فيكون المطر الغزير. وصدق الله العظيم فى قسمه بتلك الرياح ، التى يعرفها العربى ، والتى تذرو التراب ، والسحاب التى تحمل وقرها من الماء ، فقال " والذاريات ذروا فالحاملات وقرا" (الذاريات ١-٢).

ولم يقف علم العربى عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى المعرفة العلمية لفصول السنة ، وكذلك إلى المعرفة العلمية للبرق والرعد ، وأيهما يكون أسرع من الآخر ، فهل يسبق الصوت الضوء ، أم الضوء سابق الصوت؟إن سرعة الضوء تسبق سرعة الصوت، والبرق يصل إلينا عندما نفتح عيوننا حتى نراه ، أما الرعد يدخل إلى الآذان دون استئذان ، يدخل من

كل مكان لعدم تحكمنا فى غلق آذننا ، وإننا لنرى هذا المفهوم فى بيت الشاعر ، النابغة ، الذى يقول :

أصاح ترى برقا أريك وميضه   يضئ سناه عن ركام منضد

فالرعد والبرق يوجد فى السحاب الركامى لحدوث تيارات صاعدة ، والرعد والبرق علامات ومؤشرات على أن حالة السكون قد بدت تتكسر بعدها أمطار غزيرة ثم سحب متراكمة فيها ظلمات ، وعلى ذلك فظواهر البرق ترتبط بظواهر الرعد ليكون المطر ، ويصل الرعد من كل الاتجاهات بزاوية ٧٥٠ °، بينما يصل البرق فى الناحية التى يتوجه إليها الإنسان ، ويتقدم البرق على الرعد ، وصدق الله العظيم حيث يقول : " ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار" (النور ٤٣) .

لقد أدرك العربى أن الضوء أسرع من الصوت ، فترى ضوء البرق ، ثم تسمع صوت الرعد . وتلك حقيقة علمية يقررها علماء الطبيعة فى العصور الحديثة . وقد وجدت فى هذا المجال منطلقا لتقرير واقع من ألفاظ القرآن الكريم فى هذا السياق ، حول الريح والرياح ، والمطر والماء ، والسحاب والرعد والبرق .

إن القرآن الكريم يقرر أهمية هذه الظواهر عند العرب فخاطبهم بها ولكنه ليس خطابا عاما ، أو حديثا دارجا كما يفهمه عامة الناس ؛ وإنما هو حديث الإعجاز للعامة والخاصة ، وليس من شك فى أن القرآن قد جاء بلغة العرب ، ولغة قريش من هذه الأرض العربية ، ويعلم أساليبهم وقدرتهم على البيان، ونظرتهم لأمور حياتهم ، فلم يبعد عنهم وإنما كان بلسانهم ، غير أنهم لا يستطيعون مضاهاته ولو اجتمعوا له ، فهو يعرف أنهم يعيشون فى أرض صحراوية ، لا ماء فيها ولا زرع ، ويواجهون فيها حياتهم بمعاناة وقسوة من الطبيعة أحيانا ، ومن أنفسهم أحيانا أخرى ، وأن مثل هذه الحياة لا يشغلهم فيها إلا التغلب على مظاهرها القاسية ، فهم يتعرضون لأنوائها ورياحها ، وأمطارها وسيولها ، ولكنهم أصبحوا عالمين بدقائقها وأسرارها ، لأنها جزء منهم ، ولا يستطيعون منها هربا .

وتعرفنا آيات القرآن الكريم عن حاجة الإنسان للتعرف على الظواهر الكونية التى هى ضرورة من ضرورات وجوده ، فيقول عز من قائل : " الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون " (الروم ٤٨) .

إن نشوء الرياح وتصريفها يرجع إلى الله سبحانه وتعالى ومن ثم تكون حركة السحاب ، فالسحاب لا يمر بذاته ، بل بالرياح التى تجود بعد ذلك بالمطر ، فالسحاب لا ينفع الناس شيئا إذا لم يسقط ماؤه عليهم مطرا ، وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطرا، بفعل الجاذبية وحدها فقد يسر الله سبحانه أسبابه فى الرياح ، وأشياء أخرى لم يحط العلم

بتفاصيلها حتى اليوم ، والقرآن الكريم يقرر حقيقة أن السحاب الممطر إنما تثيره الرياح التي يدبر الله تعالى أمر إرسالها وتصريفها ، يقول الحق تبارك وتعالى :

" وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" (البقرة ١٦٤)

" هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال (الرعد ١٢)

" يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب " (النور ٤٠)

" وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب " (النمل ٨٨)

" وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم " (الطور ٤٤)

" حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء " (الأعراف ٥٧)

" ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما " (النور ٤٣)

" الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء " (الروم ٤٨)

" والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت " (فاطر ٩)

ويعطينا الشاعر العربى بعض المشاهد التى تعتبر مظهرا من مظاهر البيئة التى لا تغيب عن عينه، وهو يغوص فى أعماق الأشياء فيبرز دقائقها ، حتى يحرك فينا المشاعر المختبئة ، ويظهر الأحاسيس الدفينة بخياله ونظرته التى تطلعنا على ما لا نستطيع إدراكه،فهذه سحابة من نوء الجوزاء ، قد كان لها تأثيرها على الأشياء حتى الحيوانات لم تسلم من شدة برودتها، يقول الشاعر العربى:

أسرت عليه من الجوزاء سارية   تزجى الشمال عليه جامد البرد

فالسارية سحابة تسير ليلا وتمطر ، والجوزاء نوء الجوزاء ، وقد جاءت الريح ليلا وسط سحب متراكمة كانت من نوء الجوزاء ، وقد خص الشاعر " الجوزاء " ليبين لنا أن نوءها يكون فى البرد الشديد، وخص أيضا" الشمال" لشدة بردها كذلك ، ثم لم يقف عند هذه الصورة التى توحى بقسوة الريح ، بل جعل يضاعف من إحساسنا بهذا الجو ، وبمن يعيش فى هذا المكان ، فجاء بكلمة " تزجى " للشمال حيث تبرز لنا ماتسوقه وتدفعه على ما حولها من مطر فيه برد جامد ، وبذلك تكتمل أجزاء الصورة التى تدل على فنية المصور الذى نقلنا إلى قلب الصحراء فى زمن الشتاء ، وكيف يكون المكان فى هذه الفترة ، وكيف يجعلنا نقابل بينها وبين فترة أخرى يكون فيها الريح ساكنا.

ومشهد آخر يصور فيه الشاعر السحاب المتراكم ، الذى يسوق بعضه بعضا حتى يسقط المطر غزيرا متدفقا ، يستخدم لصورته الفعل " تزجى" أيضا ، يقول :

وهبت الريح من تلقاء ذى أرل   تزجى مع الليل من صرادها صرما
صهبا ظماء أتين التين عن عرض   يزجين غيما قليلا ماؤه شبما

فالصراد سحاب بارد لا ماء فيه ، والصرم القطع من السحاب ، وصهبا قطع السحاب صهب فظلالها صهب ، والتين جبل مستطيل ، والشبم الماء البارد ، واستخدام الشاعر لكلمة " تزجى " هنا أيضا يوحى بالبرد الشديد ، حيث قوة الريح والمطر الذى نزل متدفقا ، واختار وقت هبوب الرياح ليلا ليكون الأثر أكثر عمقا وإحساسا ، واختار وقع هذا الأثر على الحيوان بالذات ليبرز الصلة بينه وبين ما يراه فى عمق ، حيث يتوغل بحسه الممتد داخل الأشياء ، ويلمس قلبها كأنه خبير بها ، عالم بأسرارها مما ينعكس بلوحته التى يعرضها ، وما الحيوان إلا رمز لبيان انفعالات الشاعر تجاه الأشياء من حوله ، ولعلنا ندرك من خلال هذه اللوحة ، الريح المختلفة، فهى تأتى من الشمال تارة ، ومن نوء الجوزاء مرة أخرى ، ومن بين الجبال وأعاليها مرة ثالثة ، لوحة للصحراء بما فيها من رمال وجبال وسحاب محمل بالأمطار الغزيرة.

فالريح تهب من أعالي الجبال ، يسوق بعضها بعضا إلى السحاب البارد ، فيدفع بقطعه بعضها إلى بعض حتى تتجمع وتتكاثف فينهمر منها الماء .

إن هذه الصهب تخترق الجبال ، وتدفع بالماء البارد إلى الأرض ، فإما تحييها وإما تدمرها ، وهذا ما يجعلنا نقف عند هذه الصورة لندرك أهمية " الماء" ووظيفته واستخدامه ، بعد أن مررنا على الرياح والسحاب المتحرك بفعلها ومن ثم يكون الماء وأهميته وبالذات فى مثل هذا المكان ، فالماء بشير خير ، ما أن نسمع به حتى تدب الحياة فى كل ما يصادفه ، أما المطر فهو نذير سوء ، يقرر لنا القرآن الكريم ذلك فى استخدامه لهاتين الكلمتين : " الماء" و " المطر " ودلالة كل منهما فى المعنى ، يقول الحق جل وعلا فى استخدام لفظة " المطر " التى تحمل معنى الشر فى دلالتها :

" وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين " (الأعراف ٨٤)

أمطر على قوم " لوط" الذين كذبوه ، مطرا من حجارة من سجيل ، وأكد هذا العذاب فى آيات من سور أخرى حيث قال فيهم وفى قريتهم :

" وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود " (هود ٨٢)

وقال :

" وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل " (الحجر ٧٤)

وحجارة من سجيل أى من طين نضة بعضه إلى بعض صف وجمع فصير حجارة.

وقال أيضا ، منذرا بمطر بئيس لقوم كذبوا نبيهم :

" وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين " (الشعراء ١٧٣)

وفى سورة أخرى ، يقول نفس المعنى :

" وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين " (النمل٥٨)

وقال :

" ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء " (الفرقان ٤٠)

" وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم " (الأنفال ٣٢).

وفى سورة " الأحقاف " لما جاءهم عذاب الله الذى يستعجلونه ، حسبوه سحابا عارضا فى ناحية من نواحى السماء ، فما كان إلا وأصبح قوم هود وقد هلكوا وفنوا فلا يرى فى بلادهم شىء إلا مساكنهم ، يقول تعالى : " فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم" (الأحقاف ٢٤).

(٢٤)
(وجعلنا من الماء كل شيء حي)

أن العربي القديم كان عليما بأنواع الرياح ، أيها يكون باردا بلا ماء وأيها يكون محملا بالماء ، وأيها يكون محملا بالأتربة ، وأي هذه الرياح يكون طيبا؟ فهو يكتسب معرفته للرياح والأمطار والسحاب من بيئته التي لا ينفصل عنها ، وهي تساعده على ذلك ، ويفتن في هذه المعرفة كل من كان له حس فني يجعله ذا بصيرة نافذة لمصادر حياته التي يمارسها ، مدركا لما تحدثه الطبيعة فيما حولها ، حتى الديار التي درست وامحت آثارها لبعد الأنيس عنها ، ولم يكد يتبينها إلا بعد بطء وصبر ، فقد تعرضت لريح شديدة ، وجرت ذيولها عليها فكان لها رسم كحصير من جريد أو أدم تنمقه الصوانع ، وبصف مآخير الرياح لأن أوائلها تكون شديدة ثم تسكن أواخرها ، فتسهل الموضع ، وتذهب آثاره حتى شكل تشكيلا منمقا ، يظهر ذلك في هذا البيت:

كأن مجر الرامسات ذيولها   عليه قضيم نمقته الصوانع

فالرياح الشديدات الهبوب تسمى الرامسات ، وذيولها مآخيرها ، فهي في أولها تكون قوية شديدة ، ثم لا تلبث أن تسكن شيئا فشيئا حتى تصبح هادئة في مآخيرها، أما الريح المحملة بالأتربة التي تثيرها من الأطلال ، ثم تكون السحب الثقال ، التي يصاحبها صوت الرعد،فيتلوه سقوط الأمطار المتدفقة ، فتهدأ الريح وتسكن الأتربة ، نراها في قول العربي :

أهاجك من سعداك مغنى المعاهد   بروضة نعمى فذات الأساود
تعاورها الأرواح ينسفن تربها   وكل ملث ذي أهاضيب راعد

الموضع الذي أقاموا به هو المغنى، والمعاهد حيث عهدوا وكانوا ، ونعمى وذات الأساود : موضعان،أما الأرواح هي ريح بعد ريح ، وتعاورها اختلفت عليها ، ينسفن تربها يعني يستأصلنه ، والملث المطر الدائم ،الراعد ذو الرعد ، وذي أهاضيب دفع من المطر ، والريح الشديدة منها ما يكون عاصفا ، وما يكون متربا ، وما يسوق السحاب ، ويدفع بعضه إلى بعض ، وما يكون مصحوبا بالرعد فتسقط الأمطار ، وربما سكنت الريح أو هدأت ، وربما انقشع السحاب أو تفرق ، وقد استطاع الفنان العربي أن يدقق في أسافل السحاب وما يتلوها من السحاب السريع ، وكيف تكون متراكبة مثقلة لكثرة الماء المتدفق منها وأن الرياح التي تحرك السحب هي التي تتعاقب على الديار وتهيل عليها الرمال ، كما نرى في هذه الأبيات:

أهاجك من أسماء رسم المنازل   بروضة نعمى فذات الأجادل
أربت بها الأرواح حتى كأنما   تهادين أعلى تربها بالمناخل
وكل ملث مكفهر سحابة   كميش التوالي مرثعن الأسافل
إذا رجفت فيه رحا مرجحنة   تبعج ثجاجا غزير الحوافل

إنه عليم بالرياح والأمطار ، والسحاب ؛ فالرياح إذا عصفت تنقل الرمال والأتربة إلى بعضها وكأن بعض الرياح يهدي إلى بعضه ترابا منخولا دقيقا ، والرياح عندما تتعاقب على

المنازل يهال عليها التراب ، وكأن أعلاه منخولا لسهولته ودقته ، هذا ما تفعله الريح . أما السحاب المحمل بالمطر المتراكب فإنه يكون خفيف المآخر سريعها، وبالتدقيق فى هذا السحاب ، ترى أسافله متراكبة مثقلة لكثرة الماء ، وما يتلوه من السحاب السريع إليه ، لا يلبث عنه .

والروضة فى الأبيات ، هى الموضع الذى فيه ماء ونبت ، فإن كان فيه نبت وشجر فهى حديقة، أما نعمى وذات الأجادل فهما موضعان ، وأربت بها الأرواح بمعنى أقامت ، والملث السحاب الدائم المطر ، والمكفهر المتراكب ، أما كميش التوالى خفيف المآخر سريعها والمرثعن الذى لايبرح ، ورجفت فيه يعنى صوتت بالرعد ، والرحا معظم الغيث ، والمرجحنة الثقيلة ، وتبعق اشتد مطره ، والثجاج المصبوب ، وغزير الحوافل كثير الأمطار .

وإذا سمعت رعدا فاعلم أن بعده مطرا كثيرا ، وأن السحاب سيفرغ مافيه من ماء ، وبذلك تكون حركة الطبيعة فى يوم عاصف حيث الريح القوية ، والسحاب السريع ، والرعد القاصف ، والمطر الغزير ، نرى ذلك أيضا فى الأبيات الآتية :

أصاح ترى برقا أريــــك وميضه   يضئ سناه عن ركام منضد
أجش سمـــاكيـــا كأن ربابـــة   أراعيل شتى من قلائص أبد
تكركره ريـح يجـور بـصوتـهـا   وتعدله أخرى شمال فيهتدى
سقى دار سعدى حيث حلت بها النوى   فأفعم منها كل ربع وفدفد

مر بنا البيت الأول من هذه الأبيات ، ورأينا فيه البرق ولمعانه وضوءه الذى يكشف عن قطع من السحب تتابع فى حركة سريعة ، وبنظام دقيق ، كأن هذه القطع قد ركبت بعضها إلى بعض فى تنسيق منمق بديع ، لكن الذى يستوقف فى هذا البيت قول الشاعر " ترى برقا" ولم يقل " تسمع برقا " وهنا تقرير لحقيقة علمية يفطن إليها العربى فى عصر ما قبل الإسلام ، وهى أن الضوء أسرع من الصوت ..

أما " الماء " فقد جاء خيرا فى كل آيات القرآن الكريم ، ماعدا آيات قليلة جاء فيها " الماء " على عكس هذا المدلول ، وإن كان يوحى من جانب آخر بالغرض المرجو منه ، وهو فى العموم للصالح العام ، فالآيات التى تستوجب منا التدقيق حول هذا المفهوم تنحصر فى الآتى :

فى مشهد نوح وابنه ، والسفينة ، ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا .... فقال:

" قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء " (هود ٤٣)

فالماء هنا ينذر بخطر عظيم ، ولا شىء يمنع من هذا الخطر إلا من رحم الله ..

والله يهلك كل جبار متكبر معاند للحق مجانبه ، فالموت أمامه ، وشرابه قيح ودم ، يقول فيه:

" من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد " (ابراهيم ١٦)

أما الذين يستغيثون يوم القامة من شدة مابهم من العطش فماؤهم كما قال الله :

" وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه" (الكهف ٢٩)

وقد جاءت ذرية آدم من سلالة من ماء مهين أى من نطفة ضعيفة،يقول تعالى :

" ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين " (السجدة ٨)

فالماء هنا وإن كان ضعيفا ، إلا أن منه كانت ذرية آدم عليه السلام ، ويؤكد عز وجل ذلك فيقول:

" ألم نخلقكم من ماء مهين " (المرسلات ٢٠) ويعنى بهذا الماء المهين " النطفة"

وفى سورة " محمد" ، (آية ١٥) يبين لنا الله سبحانه وتعالى أنواع الأنهار فيقول :

" مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم "

وهكذا نستطيع أن ندرك أن " الماء " رحمة من الله فهو أساس كل شىء ، وخير يراد منه فى كل شىء ، وإن دلت الآيات السابقة على ما أنذر به من سوء ، فظاهر الشىء ينبئ بذلك ، إنما عمق الدلالة والمعنى يكمن وراء هذا السوء فمن ورائه قصد أريد به خيرا للناس ، أما الآيات التى تحمل البشرى فى طيات " الماء " فكثيرة ، ولا تحتاج غير تأملنا فيما تشير إليه ، ولها موضع فى هذا المقال يأتى بعد استكمال جوانب الموضوع حول الرياح والأمطار....

أما قطع السحاب المتتابعة التى كشف عنها ضوء البرق ، فيصورها الشاعر بقطيع من قلائص متوحشة ، يسير بعضها وراء بعض،حتى إذا تكاثفت هذه السحب، واختلطت ببعضها نزل منها الماء بفعل نوء السماك ، فيكون له صوت لشدته وغزارته وقوة اندفاعه . وأما الريح التى تتعاقب على السحب ، فهى تارة تكون عاصفة بصوتها ، وتارة تصطدم برياح الشمال فتهتدى إلى السحاب ، فيخرج منه الودق . هذا الماء المتدفق من السماء ، سقى الله به كل شىء فأحياه ... وهنا نقف عند بشير الخير لنذكر آيات الله البينات، ونتمثلها فى هذا المعنى . يقول جل جلاله :

" وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم " (البقرة ٢٢)

" وما أنزل الله من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) (البقرة ١٦٤)

" وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء " (الأنعام ٩٩)

" أن أفيضوا علينا من الماء أومما رزقكم الله " (الأعراف ٥٠)

" سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء " (الأعراف ٥٧)

" وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به " (الأنفال ١١)

" ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد " (الرعد ٤)

" أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها " (الرعد ١٧)

" وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم " (ابراهيم ٣٢)

" هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر " (النحل ١٠)

" والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها " (النحل ٦٥)

" وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى " (طه ٥٣)

" وجعلنا من الماء كل شيء حي " (الأنبياء ٣٠)
" وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت " (الحج ٥)
" ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة" (الحج ٦٣)
" والله خلق كل دابة من ماء " (النور ٤٥)
" وأنزلنا من السماء ماء طهورا " (الفرقان ٤٨)
" وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا " (الفرقان ٥٤)
" أم من خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة " (النمل ٦٠)
" ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله "(العنكبوت٦٣)
" وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها " (الروم ٢٤)
" وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم " (لقمان ١٠)
" أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز " (السجدة ٢٧)
" ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها " (فاطر ٢٧)
" ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض " (الزمر ٢١)
" فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت " (فصلت ٢٩)
" والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا " (الزخرف ١١)
" و نزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد " (ق ٩)
" ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر " (القمر ١١)
" وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر " (القمر ١٢)
" ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر " (القمر ٢٨)
" وظل ممدود وماء مسكوب " (الواقعة ٣١)
" أفرأيتم الماء الذى تشربون " (الواقعة ٦٨)
" وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا" (الجن ١٦)
" وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا " (المرسلات ٢٧)
" وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا " (النبأ ١٤)
" فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا " (عبس ٢٥)
" فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق " (الطارق ٦)

الفصل الخامس

دراسات نقدية

(٢٥)
(حديث النفس المطمئنة)

أن يفقد المرء فلذة كبده، فذلك أمر يتكرر كثيرا، أما أن يخلف هذا الفقد عملا أدبيا وإيمانيا، فتلك حال فريدة بين الناس ، إنها نهاية محرقة أتت ببداية مشرقة لكاتب حول الفجيعة إلى سياحة في الزمان والمكان .. صاحب هذا العمل هو الكاتب عبد الرحمن على فلاح ، والحدث هو فقد ولده " على " ، والحديث إليه يقول : فإليك يا " على" تحوم فى عليائك تستمطر السماء فوق كل أرض بها " على" وإلى من ابتلى بفقد فصبر واحتسب رمز لكل بلاء منذ الخليقة إلى يوم التناد ، وما صبرنا يا " على " بالصبر إذا قيس بالذات الإلهية ، فيما قيل عن عبد بن قيس - رضى الله عنه - قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ " ما أحد أصبر على أذى يسمعه ، من الله عز وجل ، إنهم يجعلون له ندا ويجعلون له ولدا ، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ، ويعطيهم " (رواه مسلم)

هذا الكتاب يقع فى اثنين ومائة صفحة ، بالقطع المتوسط ، متضمنا عددا من الرسائل فى اثنين وعشرين موضوعا ، يقف فيها القارئ على مشاهد من القرآن والسنة ، ويربطها بأحداث الواقع المعاصر،ويتتبع آثارها ، ويستخلص منها الحكمة ، وتفتح له بابا للرجوع إلى الله ليكشف الكثير مما أعده له ، والاهتداء إلى مافيه من خير ، فهو مساعد لمن أراد التعمق فى قول الله عز وجل ، ولمن يقرأ سورة " الملك" فى يومه :

" تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور" .

والكتاب فى رسائل إلى أهل البلاد ، عبر كل الأزمنة والأمكنة ، وهى لا تقتصر على الجوانب الدنيوية ، وما يتصل بها من عوامل مادية واجتماعية وشخصية ونفسية، بل يتعمق تعمقا إيمانيا تتضح أثناءه قيمة الصبر والشكر والحمد ، التى يطلعنا عليها من خلال الأنبياء والمرسلين الذين صبروا على البلاء فى القرون والبينات المختلفة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكثر هؤلاء حظا فى البلاء ، ونحن من المؤمنين بهذه الرسائل التى تصل المرء بربه، وتنهى إليه هدية صبره على البلاء وأن أهل البلاء فى منزلة عالية، فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، والباحث فى ذلك يفتح باب السلوان لأهل البلاء فيزودهم بجزء أكبر وأوسع من التجارب والمشاهد فى حياتنا المعاصرة، ويقدم عليها الدليل من الأمم السابقة ، بأن الله إذا أحب عبدا ابتلاه ليسمع تضرعه ، وهنا يكون للاستغفار دور كبير فى مكانة المبتلى ومنزلته فى الدنيا والآخرة :

" استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم" (هود ٥٢) ، وتذكروا استغفار ذى النون عندما نزل به البلاء ، فقال : " لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين " ، واستغفار آدم بعدما أزله الشيطان عن الشجرة : " فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه "

واستغفار كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ومرارة بن ربيعة ، مما نزل بهم من البلاء : " وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم " (التوبة ١١٨) ، وأن سيد الاستغفار أن نقول : " اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ، ووعدك ما استطعت ... أعوذ بك من شر ما صنعت ... أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .....

وللكاتب مقدرة جيدة على عرض موضوعاته ، والتعبير عنها بوضوح ، وتحليل نماذج من القرآن والسنة ، وهو يأخذنا فى رحلة عبر هذه الرسائل على مر الأزمنة والعصور ، ويؤلف بينها مكونا منظومة فكرية منسقة حول قيمة الصبر والشكر ، كانت وراءها شخصية المؤلف ، وإيمانه الذى نحسه من الأنات والجروح الذاتية التى خلفها فقد ولده الذى اختاره المليك المقتدر فى مقعد صدق عنده ، ليكون من الولدان المخلدين الذين إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ... من أجل ذلك كان حديث النفس ، هو حديث الإيمان واليقين .

فالكتاب يكتسب قيمته من أنه يؤسس بشكل شامل لموضوع فى غاية الأهمية فى حياتنا المعاصرة ، بتحديد لفظة " الصبر" و" الشكر" الذى يكشف عن ارتباطها بالبلاء فى حياة البشر ويناقش أصالة الموضوع ، ويوزع مادته على رسائل الإيمان....

من أجل ذلك تتبع الكتاب مراحل البلاء مع نماذج مختلفة عبر العصور ، وأن الكاتب . هو الحريص على الخير ، وعلى ما يفيد . يعلم بأن الساحة فى حاجة ملحة إلى ما يعيد إلى الأذهان ما قد يكون منسيا ، وأن يرشد إلى ما يجب أن نترسمه فى حياتنا من أقوال القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، فى رؤية الإيمان حول قضايا الحياة .

وتكمن أهمية أخرى للكتاب فى الأساليب النثرية التى تناولت هذا الجانب ، والذى يبرز عمق التجربة رغبة منه فى الكشف عن الذات فى مرآتها الخاصة ، وفى مرايا الآخرين معا ، وعن رؤية هذه الذات للصبر على البلاء ودلالته ، يسعفه فى ذلك معرفة واسعة للقرآن والحديث وقدرة عالية قادرة على التجربة الحية التى مر بها ، والتعاطف العميق مع الآخرين ، والكشف الباهر عن الحقيقة المختبئة وراء الماديات ، فهو بين اتجاه إلى القرآن ، واتجاه إلى الحديث ، فى عالم البلاء ، والصبر عليه : " واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين" .

• صدر الكتاب بدولة البحرين سنة ١٩٩٨ . رقم الإيداع بالمكتبة العامة ٢٣١٢ د.ع

(٢٦)
(الفوز العظيم)

الدنيا دار فناء ، والحياة لهو ولعب ، أما الآخرة فهى دار الحيوان ، والحياة فيها حق وصدق ،والإنسان فى الدنيا شقى ، لأنه يعيش فيها يجوع ويعرى ويظمأ ، ويشتهى ويمرض ويتعذب ويخطئ ويأثم . وهو فى الآخرة لا يجوع ولا يعرى : " إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى "(طه ١١٨ . ١١٩) .

فالعاقل من يعمل لهذا اليوم ، فالموت بوابة الآخرة : " فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين " (الواقعة ٨٣ . ٨٧)

" كلا إذا بلغت التراقى وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق " (القيامة ٢٦ . ٢٩) . وما بالك لو رأيت : إذا بلغت نفس أحدهم التراقى عند مماته وحشرج بها ، وقال أهله . وهم ينظرون إليه . من ذا يرقيه فيشفيه ، وطلبوا له الأطباء والمداوين فلم يغنوا عنه شيئا ، وأيقن الذى قد نزل ذلك به أنه فراق الدنيا والأهل والولد ، والتفت ساق الدنيا بساق الآخرة ، وذلك شدة كرب الموت بشدة هول المطلع ، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة.

الموت مرحلة من مراحل الوجود ، وإن كانت غامضة لا تدرك حقيقتها ، ولا تعرف عنها شيئا، ولكننا نستطيع أن نؤكد أنها مرحلة تليها حياة أكرم من حياتنا هذه، وأعمق إحساسا ، وأرحب آفاقا . لقد قالت الخنساء الشاعرة عندما جاء صوت النعى فى كل ناد يحمل نبأ موت أبنائها :" الحمد لله الذى شرفنى باستشادهم " . فلم تبد به ، ولم يصبح فؤادها فارغا ؛ بل ربط الإيمان على قلبها لعلمها بمكانتهم فى الآخرة، وأنهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهم فى حياة حقيقية عبر عنها القرآن، الكريم :

" وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون " (العنكبوت ٦٤) .

ولقد اتفق علماء المسلمين على أن الموت ليس نهاية ، وإنما هو بداية لطور إنسانى جديد وليس ما يتصورونه بداية فناء .... لقد خلق الله الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملا : " الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور" (الملك٢).

والموت أصدق الحقائق التى لايشوبها لبس أو أرتياب ، والموت لا يعنى الانتهاء أو الفناء أو التلاشى ، بل هو صورة أخرى من صور الحياة ، ولولا الموت لانطلق الكثيرون سراعا منتحرين يأسا أو قنوطا ، أو مللا وسأما أكثر مما ينتحر الكثيرون أيضا يأسا من الحياة ، أو أوجاع ومواجع الحياة ، ولو أدرك الإنسان حقيقة رسالته فى الحياة كما أعلنها الله عز وجل فى قوله : " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " (الذاريات ٥٦) .

عبادة على منهج الله ، وحتى تستمر حركة الحياة لابد من العمل من أجل العيش، وعلى الإنسان أن يتعقل موقفه من حياته وفى حياته، وحسن فهمه لرسالته ، وما دام الإنسان

قد وجد فلابد أن يحيا وأن يدرك أن الحياة نعمة عظمى من الله الخالق الحكيم ، ولابد لنا أن نعمل ، وأن تكون حياتنا عامرة بالثقة والإيمان واليقين ، والتعاون والمحبة والسلام والمناصرة ، بعيدة كل البعد عن الطيرة والشك والحيرة والفزع والخوف والتخبط في متاهات التساؤلات العقيمة . فالإنسان هو الحضارة ، وهو الذى كرمه الله وأعده ليكون خليفته على الأرض.

قال حامد الغزالى ، حجة الإسلام لبعض أصحابه حين أحس بدنو أجله : انتونى بثوب جديد .. قالوا له : ماذا تريد منه؟ قال أبو حامد : سألقى به الملك ، فجاؤه بالثوب ، فطلع به إلى بيته ، وأبطأ على أصحابه فلم يعد ، فذهبوا إليه يستطلعون نبأه فوجدوه ميتا .. وإذا عند رأسه ورقة كتبت فيها هذه الأبيات:

لا تظنو الموت موتا إنه كحياة وهو غايات المنى
لا ترعكم هجمة الموت فما هى إلا نقلة من هاهنا

هذه الأبيات هى فى نهاية الأمر صورة صحيحة للفكر الدينى عما وراء الموت ..... فكل بداية لا بد أن يكون لها نهاية ، والنهاية لا تعنى توقف الحدث ، وإنما هى توقف للزمن ، والزمن فرع الحدث ، فمع الزمن تكون الحياة ، وما من أحد منا إلا واستوقفه حدث الموت .... فى صديق أو عزيز لديه ففكر لوقته فى هذا الأمر الذى لا يقدر عليه سوى الذى خلق . الموت والحياة . فأخذ يجول ببصره فيمن حوله:الأباطرة والأكاسرة، الجبابرة والطغاة ، الملوك والأمراء ، الأغنياء والفقراء ، الصحاب والرفاق . ألم يجامل الموت أحدا منهم ؟ هؤلاء من كنا معهم ، فأين السابقون ؟ أين صاروا ؟

صاح هذى قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد؟

أهكذا كل الذى فوق التراب تراب ؟ حقيقة لا يدركها إلا العاملون من أجلها ، المؤمنون بهذه الكلمات :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

ومن الناس من يتخذ الموت ذكرا له تعميقا لإيمانه بالآخرة ونعيمها ، وأن الدنيا دار شقاء وعذاب ، فالعاقل من يذكر الموت ، فهو دليل الإيمان ، ومن الناس من يجزع ويقلق ويخاف ويفكر حتى يأتيه الأجل ، وهو غافل عنه ، ولن يكسب الخير كله فى الحياة الدنيا والآخرة إلا من اتقى الله ورعاه ، وعمل لهذا اللقاء وما بعده.

(٢٧)
(مالكم لا تناصرون ......)

ليس هناك من يفضل النزاعات والخلافات بين الأشقاء، فالوفاق أمان يسمح للحياة والتعاون بالانطلاق ، أما الخلف فهو جراح وتباعد وبغض ، ومن هنا تتعالى الأصوات ، وتبح الحناجر بوقف الادعاءات ونبذها ، واللجوء إلى كلمة سواء ...

نعم الأرض لا تضم ملائكة يمشون فيها مطمئنين ، وإنما تضم بشرا له مصالحه ، وله أطماعه وله طغيانه ؛ والطغيان البشري والمصالح هما السبب الرئيسي في معظم الحروب ، وللحروب ويلاتها . من هنا نستعرض ما كان للعرب في الجاهلية من أيام تعتبر مصدرا لما كان من صلات قائمة بينهم وبين غيرهم من الأمم المجاورة ، خذ مثلا قبيلة " ذبيان " تظهر على مسرح التاريخ الجاهلي مع حرب " داحس والغبراء " التي نشبت بينها وبين أختها " عبس" ؛ واستمرت فيما يقول الرواة نحو أربعين عاما ، وليس فينا من يجهل سبب هذه المعركة التي استعرت فيها نيران الحرب بين القبيلتين من أجل خلاف كان يمكن أن يزول ، ولكن الحرب أتت على الأبطال والرجال ، وتبودلت الوفود لطلب الصلح ، وتدخل سيدا بني مرة : الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، . وهما من دعاة السلام . فحملا قومهما على الصلح وجاء في صنيعهما قول الشاعر:

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما ... تبذل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم

إن النزاعات كانت قائمة بين العشائر والقبائل منذ القدم ، ومثل هذه الخلافات تحدث في كل المجتمعات والعصور والأزمان لأسباب قد تختلف من وقت لآخر ، ومن مكان لمكان؛ غير أن الفكر تجاه هذه الأحداث لابد أن يكون إيجابيا ، ومن أجل الصالح العام..

وها نحن بعد أربعة عشر قرنا ، وعلى مشارف القرن الخامس عشر لا نزال في فرقة وخصام ، وأيام لم تخرج في أسبابها عن أسباب الأيام الجاهلية ، فالنزاع والخلاف دائر بين الأشقاء من أجل قطعة أرض أو تقسيم حدود ، أو ماشابه ذلك ، ويستمر الوضع على هذا الحال لنحو أعوام وتظل الأزمة قائمة والمشكلة تتفاقم يوما بعد يوم ، رغم الجهود التي تبذل لفض الاشتباك بين الأطراف ، لا نريد أن تتأثر العلاقات الثنائية بين البلاد سلبا في المستقبل علما بأنهم أشقاء في الجزائر والسودان والسعودية والأردن والكويت والعراق والبحرين وقطر والمغرب وتونس والإمارات وسوريا وتركيا وليبيا ، والباكستان والهند .

لماذا لا يكون الود طريقا إلى حل الخلاف ، بما يتناسب مع ما يفترض أن تتسم به العلاقات بين دوله من تجانس وتفاهم وروابط بين الشعوب بعضها وبعض ؛ حتى ولو اعتبرت إحدى الشقيقتين قضيتها قضية حدود ، واعتبرتها الأخرى قضية وجود، فلابد من محاولات لاحتواء الخلاف وتسوية المنازعات العربية .

نعم هناك من يريدالإصلاح ، ويسعى إليه ، ولم نعدم من يدعو إلى السلام كما رأينا فى القديم ؛ فالسعودية ومصر مثلا تقومان بدور مهم وحيوى فى الوساطة بين بعض الأشقاء، من أجل ذلك نسعى لحل ودى ينهى الخلاف بين الدول : " ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين " (البقرة ١٩٠).

مالنا لا نتناصر ؟ وقد جعل الله الأرض . كل الأرض . للأنام . كل الخلائق . : " والأرض وضعها للأنام " (الرحمن ١٠) ، بلا حدود أو فواصل أو هويات ، ليسير فيها الإنسان مستكملا حركة حياته ، إما سائحا معتبرا ، أو باحثا عن رزق بعيدا عن مكان ضاق به ، فحين قال الله تبارك وتعالى فى قرآنه : " قل سيروا فى الأرض فانظروا " ، إنما طلب أن ننتقل من مكان إلى آخر فى لفظة " سيروا " ، والسير مترتب عليه النظر ، وعند النظر تنتهى كل المشكلات إذا تصورنا أرضا بلا رجال ، ورجالا بلا أرض ... إن حل المشكلة يكمن فى هذا التصور ، فلو جعلت الأرض مهادا للناس جميعا ، ما وجدت خلافا عليها يقول الحق تبارك وتعالى : " إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا " (النساء ٩٧) . فى ذلك إشارة إلى الذين استكانوا فى مكانهم ، لم يحققوا فيه حركة حياتهم ، ورضوا بإقامتهم على ماهم عليه ، مختارين ذلك على الهجرة ، فلا يقبلهم الله... الأرض واسعة تسع كل الناس ، فيها الرزق أينما تولون ، فلو ضاق منها مكان عليك ، فهاجر لغيره تجد مراغما كثيرا وسعة.

وسيأتى الناس ظاهرين لعيون الناظرين : " يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء" والله جل جلاله يقول : " لمن الملك اليوم " فلا يدعى الملك أحد غيره ، فيجيب نفسه ، فيقول : " لله الواحد القهار " (غافر ١٦) .

(٢٨)
(خسوف قمر)

ارتحل الركب ، وعاد الشيخ يرقب نجما أصبح في الأرض لا يضئ ، وفوق صخرة على الشاطئ نورس يحوم في هياج صخيب ، حتى هوى في انكسار وسط أمواه البحار، تراه يعود وقد كان بالأمس بهجا في ضحى الأفق القريب ، يشدو فتناديه أسراب من جديد ويهيم على صفحة الماء فتثنيه موجة عن الرؤى ، فيذوب في الجليد، ثم يطفو من بعيد في جسارة لا يلين، والحصى يصل صليل الحلى في الأذان ، وعلى الرمال أطفال يمرحون، فيهم ولد غض الإهاب حلو القسمات، أسكره الحزن فراح يستمطر السماء العدالة في العباد،كأنما ينتزع الشمس من كهفها، حتى صارت كرة ضخمة من دخان لتطوى مشهدا غاب عن الآفاق ، هو ذا قدر الحق ما بقى الناس غفل في واديهم السحيق ، وتوارت النوارس عن الأنظار ، وصارت في الأعماق ، واستدار الأطفال يستمعون لصدى الغيب المستور ، يردد حديث الشيخ في كلمات تقول :

" إن الموت يجذب أذني ، ويقول عش فإني قادم " ، ويبدو في جلده المقهور أمامهم ليريهم أنه لذاك الأمر مستبشر . وتتطاير أجنحة الصبا والشباب حول الشيخ مع الذكريات ، وترفرف ضاحكة كلما مر طيف خيال ، لمسافر بلا قدم ولا طريق ، يعانق الوهم ، وينسى إلا روح الجمال والصفاء والنقاء ، مع خواطر الماضي يوم كان يرنو إلى الطبيعة يستوحيها منظومة عقد لحياته القادمة ، فلا يزال يجمع جماناتها وتعوزه واسطتها ، فتنتثر الحبات صرعى في كل اتجاه بعدما ظن ألا تراخيا ..

ووسط زحام هذه الأحلام والمشاهد التى تتراقص أمام صفحة الماء ، ضوء يوقفه في مسيرة الظلام ، يعيد لجسده الناحل ، وقدمه المهزول شيئا من حياة ، ولكن أي طيف يراود ذلك الشيخ ، ويسبقه إلى عالمه الجديد ؟ وأي أمل أصبح شهيدا كان يرنو إليه؟ أتبرق سماء بعد بكاء؟ وتضحك أرض بعد موات؟ وهل لطير يضم جناحه فوق جرح يطير ؟ ولنورس في الفضاء يعود؟ وما هي إلا ساعة لا يدرى زمنها ، ويترك الموضع الذى جمع وصاله ، وقد هاجه استعبار، وأغمض جفنه ليفر من الأوهام ، وجعل بين عبرته والرائى سترا، وأصبح وحده يشكو الجوى، بعدما كان الوداد واللقا... وقطع الطريق، وتثاقلت الأقدام ، والجسد مرت عليه الأحزان ، تركوه وانفضوا ، وراح يرنو ساعة إلى القمر المنير ، متسائلا متى يعود إلى حيث الوفاء بالوعود ؟ أغدا أم اليوم أو بعد شهور ؟ كانت روحا تنطلق في خطا ثابتة ،ومشاهد الأحلام الوردية ، وضحكات شهدتها الأمسيات ، والأثر في كل بقعة كان .

حملوا إليه الأزهار والورود ، وزينوا الجدران والسقوف ، ونسوا أن المحتفى به في عيده في رحاب الرسول ، فالقلوب في بعدها متبولة ، هائمة من إثرها محزونة ، والدار قفر بلا أنيس والأشياء كومة ملقاة في الركن البعيد، حتى العجائز أفاقوا لما رأوا عجيبة الدهر ، فليس إلا الصدى والترجيع دون لحن مصيب ، يأتى من الوادى الحبيب، درة الأحلام

الوردية ، والليالي القمرية ، بعد أن تغيب الشمس في ردائها الأحمر، ويعاوده الحنين للشروق في ردائه الأبيض ، والدنيا بهجة تمضي في فنون ، لكن السكون قد عاد ، حوى كل الفراغات ، وأجراس الهاتف سكنت في صمت مخيف، وأوراق الصحف ذبلت كالرميم ، والهدوء العاصف يحيل اللقاءات إلى مشاهد لاتدوم مع الأيام عبر المسير، في الشارع الخلفي بعيدا عن الناس ، وأمام الحافلات ، وفي القاعات العالية ، ومرائي الكائنات الحانية ، تودع لمساء يجمع ، وتتفرق حبائله لتبدأ الدورة من جديد ؛ ويرى الشيخ نهاية الرواية وخاتمتها ، وأن أبطالها جميعهم تحولوا إلى دمى ، كل في طريق ، لا وداد ولا عودة لماض من العمر استراح ولن تكون ألا دعوة تنذر بالوعيد ، فلا الحلم دام ، ولا المسير .

يا نفس ، كل شيء هان، معلنا صدق قول الحق الذي شاء ، إنها الحتمية المؤكدة ، فلا غرابة من ذات تتوق إلى العدل حيث لا يكون إلا هو رداء للمعذبين ...

يانفس ، حلقي ما شئت فوق الأعناق ، عبر الحدود ، ومع الأطيار في سماء الوجود ، فربما صرت من الملائكة أو المقربين ، افعلي ماشئت ، فكل شيء مرهون بقضاء ، واقرأي مقدمة كتاب العمر ، فلا تزال باقية. هناك في محرابك وأنت تطوفين ، ثم قفي أمام الكعبة المشرفة في ردائها العسجدي ، وعند حجر إبراهيم اذكرى أنا تلاقينا هنا في هذا المكان الحبيب ، وعند المسجد النبوي ، والشوق يدفع للمزيد ، وعلى كل حبة رمل من رمال البقيع ، وقمم الجبال، والسفوح، وساعة الغروب والشروق ، ومع الحمام في حمى الرحمن ، ينقل خواطر العباد عبر الأثير ، سليه ولن تستغربي ما ستعرفين، وجموع الطائفين عند المسجدالحرام يذكرون الرحمن ، أصوات بين أصوات تردد نشيد الحجيج ، ومن فوق عرفات في حضرة الرحمن ، والدمع تنهمر ثجاجة مدرارة ، في يوم جمعة ، نفس الموعد ، والأصوات تتعالى في صباح ، تلح في الدعاء ، والعيون شاخصة ، وكل في واد .. وأنا وحدي وسط هذا الزحام ، أناجي ربي بصوت خافت يقينا أنه يسمعني .. وأحسب دمعي قد تجمد ، فلم يعد يذرف ، ولم أنطق بحرف ، كأن أمام الحروف سدودا ، وعجبت للأمر كيف لا أكون كالملايين يبكون ويلوحون ويكبرون ، ويملأون الفضاء بالوعود وأنا فيهم فرح مستبشر كأني أرى الحبيب ، فلا تسبقني الدموع إلى التعبير عما بداخلي ، فكلي رجاء ويقين فأنا مع المعين ، وهو معي في كل حين ، ألا يكون التضرع والآهات إلا من فوق هذه الأرض؟ أليست الأرض كلها لله ، وهل لايستجاب لعبد حتى ولو كان في جوف حوت ؟ لقد قابلته في صمت ، وبكيت له في خشوع ، ودعوته في إيمان ، فرأيته قريبا مجيبا كل دعاء ولا أزال في رحمة الرحمن دوما إلى أن يشاء،والنور يملأ الرحب أمام الأبصار ، فتتولد كلمات جديدة ، فيها رسوخ البناء القوي السامق ، وتتماسك الكلمات بأحاسيس كما تتماسك الحجارة الصلبة مع غيرها ، ليشد بعضها بعضا ، وتبدو الخطوط مستقيمة ، والزوايا قائمة ، والرؤى واضحة إلى الله الذي شدت الرحال إليه ، في حنين ، وهزة مشتاق، وليرجم الشيطان ذكرى لأب الأنبياء ، إبراهيم عليه السلام، وتحية له واحتراما ، وإحياء لما قام به ليسخل الشيطان .

العيد صار عيدين ، وحارت القلوب إلى أيهما تهفو ، والأصوات ذابت في الفضاء ، من يسمع تهنئة العيد، ولمن تقدم الهدايا رمز الحنين، وشعاع الفجر لم يعد يبين ، فقد

أطفئت الأنوار ، وعادت المشاهد تظهر من جديد في جزيرة الأحلام ، والملاح القديم ينذر بسر دفين أمام المشهد العصيب ، فطوفان الحياة لابد أن يجرف الغث والثمين ، وتلعب المقادير في الكون العجيب ، ويعود كل شيء لزوال كما أصبح يكون ، وتبقى الحركة في سكون ، رغم آثارالوجود ، ورغم أقوالك الصادقة ، شيمة الصالحين وسمة الطائعين، المحسنين، كفعل الرسل والأنبياء ، وتجلى الرحمات في الطيبات من الأعمال فشملت كل إنسان، وصرت كالملاك ، فالشوق لمثلك لا يهدأ بل يثور ، وكلنا للأقدار مشدود ، وبالفراق محتوم ، يوم تبلغ الحلقوم ، وتتلاقى في عالم الخلود ، وتعود الحياة بلا شطآن ، والناس غفل كلما مر بهم زمان ، لا يدرون هذا المصير البين للعيان ، وتتراءى أمامهم معاني النقاء، والصفاء، الإيمان ، الورع ، التقى ، الإحساس ، وتكون انعكاسات المشاهد والرؤى، وانكسارات النظريات والقوانين ، وكل ما تردد على ألسنة العباقرة والمكتشفين.....

ويتساءل الشيخ : لم لم يصاحبها وتصاحبه هذه المرة، وهو الذى كان ينتقل هنا وهناك صباح مساء ، دون ما انفصال ، لا بد أن شيئا قد اختل مكياله ، وأن ناموسا قد أصبح متعطلا ، وتلك مؤشرات الأنبياء حين يصبح الواقع خيالا، ويتعطل ناموس من نواميس الكون ليدل على أمر لا يقوى عليه بنو آدم ، حتى إبليس الذى شذ عن الناموس، لم يستطع أن يبقى كما كان من الجن .

ولم يشعر الشيخ بشوق لمن يهفو ، فلا يشتاق إلا لغائب ، وهو معه أينما كان وحينما وجد ، في الليل والنهار ، وعند الرقاد ، لا ينثنى طيف عن مضجعه ، ولا يستريح من نار تملأ أضلعه ، وتأجج عظامه ، إلى أن يسمع صوت المؤذن ، أو هكذا يخيل له ليسابق الصباح ، وما هو من الليل بأمثل.

(٢٩)
(الدولة فى الإسلام)

كتاب "الدولة فى الإسلام" تأليف الكاتب عبد الرحمن على فلاح، هو الكتاب السابع الذى يسعى فيه المؤلف إلى توضيح قضايا الإسلام ، بما له من دراية، وما يتمتع به بدرجة عالية لفهم النص القرآنى ، إضافة إلى قدرته على تحليل المواقف ، والكتاب يقع فى ١٨١ صفحة من القطع المتوسط ، ويتضمن تسعة فصول، يندرج تحت كل فصل عدة موضوعات ، والقراءة المستأنية ، والتأمل المستبصر يدفعاننا للإعجاب بفكرة الكتاب ، فمن يقرأ عن ركائز الدولة فى الإسلام ، ينفعل بها انفعالا بعينه ، أو تتملكه فكرة مسيطرة حافزة ، فيحس إزاء ما قرأ بأنه فى ربوع هذه الدولة آمن مطمئن ، وليت هذا التأثير يستديم أو يخلد ، أو ينقل إلى النفوس ليمنحهم شعورا أو إحساسا أو تفكيرا ويدفعهم إلى الأمن والطمأنينة ، وإذا ما كان للدولة فى الإسلام فكرتها فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أوجد نفوسا دعت إلى العدل فى كل خطوة من خطى الزمن ، فإن الشىء الذى يستأهل أن نضعه فى الحسبان أن هذه الموضوعات تقتضى إثارة تلك الأفكار الإصلاحية ، والدعوة إليها والإشادة بها ، وفى ذلك دلالة على أن المؤلف كان يدرك غاية هذة الموضوعات أن تخدم معنى ساميا، أو هدفا شريفا أو غاية نبيلة .

إن القارئ لهذه الموضوعات يجد نفسه أمام فيض من المعانى الرفيعة ، والأفكار الإصلاحية السامية التى تنبعث من واقع الإسلام ، وترمى إلى إنهاضها ، وترنو إلى مستقبلها المأمول ، ولا تغفل فى وقت من الأوقات عن تنبيه الأفراد ، وإبقاء الحمية فى نفوسهم ليتخلصوا من المثبطات ، ويتساموا على المصالح الشخصية ، ويحتشدوا من أجل النهوض ، ويصمدوا فى مقاومة معاول الهدم التى يسلطها الأعداء على كيانهم ، ويعقدوا العزم على التخلص من أدوائهم الأجتماعية ، ويستحثوا الهمم والعزائم من أجل الوصول إلى المكانة اللائقة ، ولا يخلو كل موضوع من تلك الموضوعات من الومضات الدالة والأفكار الإصلاحية الرائدة ، واللفتات المعبرة عن روح المؤلف ، الباحث دوما عن الهدف النبيل ، والغاية السامية والباقيات الصالحات وهى روح تظهرنا على عزيمة أكيدة لرائد من رواد دراسة القضايا الإسلامية فى هذا العصر ، وله فيها مؤلفات عدة منها : قوة الإسلام ، والإسلام والوصاية على الأديان ، وحديث النفس المطمئنة ، والشيوعية أفيون الشعوب ، وكلها تسير فى خط متوازن تجاه خلق مجتمع فاضل يقوم على دعائم ثابتة مستمدة من الكتاب والسنة ، واستمرارا لكتابات المؤلف الإسلامية الخصبة يطل علينا هذا الكتاب الذى نتحدث عنه من خلال عدة محاور:

أبدأ بمرحلة إعداد الرجال :

والتى انطلقت من مكة ، وثلاث عشر سنة فى مكة والرسول يدعو لمجتمع مثالى ، متحملا كل عناء فى سبيل بناء إنسان متحضر ، واضعا أمامه قبل بناء الدولة ، بناء الإنسان ؛

والإنسان صانع الحضارات ، فحاول أعداء الإسلام هدم عقيدة المسلم ، وأن عليهم إن أرادوا التقدم أن يلفظوا الدين ، كما لفظه الغرب فكان سر تقدمهم في ذلك فكانت دولة الإسلام في المدينة المنورة ، بعد أن هاجر الرسول إليها ، وقام بإرساء دعائم تلك الدولة الإسلامية التي تحددت معالمها في يثرب ، وكيف أن تلك الدولة تتحقق إلا بعد أن تحقق الانتصار مع الذات أولا ، من أجل ذلك قدم الكاتب للإنسان المسلم ما يمكن أن يتمسك به، ويتسلح في سلوكياته وتعاملاته ، ففي ذلك إعادة لبناء الذات ، ومن ثم يتحقق الانتصار والتفوق مع الأعداء .

كما تحدث عن الجهاد الأصغر ، وكيف أنه صعب التحقيق الآن ، ودعا إلى الجهاد الأكبر فهو قوام المجتمع الفاضل ؛ ولا أظن أحدا ينكر قيمة العمل وأهميته وركائزه المتمثلة في الصدق والأمانة والوفاء والإخلاص ، وكل المعاني الإسلامية التي دعت إلى أن يطلق عليه الجهاد الأكبر .

ثم تحدث عن العدل ، وأن العداالة قوام الدولة ذات الأركان الثابتة ، وضرب أمثلة للحاكم العادل من مثل عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبي طالب ، وعمر بن عبد العزيز ، الذين نهضوا بالمسئولية ، وحملوا تبعتها ، ولهم في ذلك مواقف ، فالإسلام يقوم على مجموعة من الفضائل والقيم أهمها العدل في كل أمور الحياة العامة والخاصة ، ومن آياته شهادة الحق ، ونبذ شهادة الزور ، ويبلغ هذا العدل مداه في فريضة الزكاة التي تجعل العدل الاجتماعي أحد أركان الإسلام الخمسة . وهي مهمة للغاية، ولعلنا نطبقها لندرك مدى ما أصاب حياتنا من فساد متبجح ، وغرور كريه وادعاء أحمق خاصة فيما يتعلق بأمانة القيادة، وعدم الدقة في الاختيار ، وأن نقدم مقارنة بين ما نحن عليه ، وبين النماذج الباهرة التي قدمها الكاتب من الولاة الصالحين ، الذين اختيروا بدقة بالغة ، فهذا نور الإسلام " سعيد بن عامر" يشكوه الرعية لعمر بن الخطاب ، فماذا كانت شكايتهم ، وماذا كانت وصايا الفاروق في الولاية ، وصلة الراعي بالرعية ، وصفات القائد الذي نتمناه ، والإمام العادل؟ لابد إذن من استعادة تاريخ السيرة ففيها صفحات مشرقة من تاريخنا العظيم تشير إلى القيادة الأولى ، وإن كانت القراءة والاستيعاب من الأمور الصعبة التي تحتاج إلى الذين يصبرون على القراءة والاستيعاب.

إن أهل الجد والعزم يطالعون مايكتبه أهل الجد والعزم ، وهو ما يبشر بالأمل القادم . إن شاء الله . ولو بعد حين.

ومن محور آخر يتحدث الكاتب عن مبدأ الحرية : حرية الاعتقاد، حرية التفكير (العقل) ، حرية المعارضة، حرية القول ، فقد قضى الله أن (لاإكراه في الدين) قانونا عاما يلتزم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون في كل العصور والبقاع ، احتراما لعقل الإنسان وكرامته ولم ترد كتب التاريخ الإسلامي أن أحدا يدين بدين إلهي ، أو وثني أجبر على الدخول في الإسلام ، بل كان من يسلم يعلن إسلامه أمام قاض وشهود ، ليثبت أنه أسلم حرا مختارا دين الإسلام، كما أن الله كرم الإنسان وفضله، وحث على معاملة الإسلام لأصحاب الديانات الأخرى، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والراشدين من بعده

معروفة فى إكرام المسيحيين ، بل لقد عد المسلمون معاهدة الرسول أهل نجران اليمنيين المسيحيين القانون الملزم لمحافظة المسلمين لأهل الملك : إلهية ووثنية على شعائرهم الدينية ومعابدهم وأموالهم ، وألا يمس بأى صورة رجال ديانتهم ، وعاش النصارى ينعمون بسماحة الإسلام مكرمين ، يتعبدون فى أديرتهم، وكانت لهم محاكمهم الخاصة بهم ، يتقاضون أمامها ، وكذلك كانت لليهود محاكم خاصة بهم يتولاها كبار أحبارهم فى البلدان الإسلامية المختلفة ، وعاش المسلمون فى سلام مع كل أصحاب الديانات ممن كانوا يسمون أهل الذمة ، دلالة على أنهم فى ذمة الإسلام وعهده ، بل كان منهم الكتاب ، والمستشارون ، ووصل بعضهم إلى الوزارة فى بعض العصور .

ويصحح المؤلف الجليل ، مفهوم الجزية التى كانت تفرض على أهل الذمة ، ويقرر أنها لم تكن ضريبة دينية كما يظن البعض خطأ ، إنما كانت ضريبة دفاع لا تؤخذ إلا ممن يصلحون للتجنيد من أهل الذمة ، إذ لم يكونوا يشتركون فى جيش الدولة الإسلامى ، وكانت مبلغا ماليا زهيدا لا يعدو دينارا واحدا فى السنة .

وكنتيجة لهذا الحديث يأتى عن مبدأ المساوة ، وعن الأخوة التى أرساها الإسلام بين الناس، هذه المساوة التى تمتد إلى تطبيق الحدود والقوانين ، كما يرسى الإسلام قيم : احترام العمل، والوفاء بالعهد ، وينشر فضيلة الرحمة ، ويحث على الجهاد ، خاصة الجهاد بالكلمة ، وخلق المسلم دائما : الصدق والصبر ، والتواضع ، هذا التواضع الذى يجب أن يتسم به دائما أهل العلم عملا بقول الله تعالى : " تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين" (القصص ٨٣) .

إن مبدأ المساوة بين الناس . المسلمين وغير المسلمين . كان مطبقا وحتى فى قضاياهم معا على الطريق ، وضرب مثل بمعركة فلسطين . والدفاع عنها من مسلمين ونصارى لأن المعركة الحقيقية مع التراث أولا ، ومن ثم تكون الأمم الراشدة ، والإسلام يدعو إلى ذلك كله، إلى قول الحق ، وفعل الحق ، والجهاد من أجل الحق ، ونشر الحق، من أجل ذلك جاء الاعتراف الكامل بالرسل والأنبياء السابقين لأنهم دعوا بالحق ، وإليه ، والأوبة إلى الله رجوع للحق ، ومن مشى إليه أتاه هرولة ، ويظل باب التوبة مفتوحا رغم التخفيف الذى يسره الإسلام على المسلمين فيما أبان من وجوه التكليف ، غير أن الكبائر تؤتى عن إرادة ، والإسلام يدعو إلى الطهر والعفاف حين بين علاقة الرجل بالمرأة ، وكيف أنها مكرمة حيث جعل زواجها من الرجل زواجا شرعيا يتحقق فيه الصدق والنية والإعلان والثبات ، والشهود والإشهار والتوثيق ، ومن ثم تكون السكينة والمودة والرحمة ، أما ما نسمع به من أنواع الزواج الأخرى ، وما نراه فى مجتمعاتنا فهو ما لانرضاه لشبابنا ، وهو مناف للشرعة والمنهاج ، وهوهم . أشد جنود الله . يصيب الإنسان ويلاحقه ، ويحيل حياته جحيما ، وعواقبه لا نهاية لها ، أعاذنا الله وإياكم هذا الشر المستطير.

إن الدعوة نبراس وسراج منير لكل من يسر له الله الإخلاص والهمة والسعى المبصر فى طلب الكشف عن عالمية الإسلام ، وسيبقى بمشيئة الله ما دعى إليه دليلا هاديا يمهد الطريق لمن أراد من أهل زمننا ، ومن يجئ بعدنا ، أن يهجر الفساد المتفشى فى زماننا

وزمانهم ، مهاجرا إلى الصدق المؤدى إلى بلوغ الحق ، مهما صادف من ابتلاء في سبيل ذلك حتى تستتب الخطى على الطريق المستقيم ، وما المقدمة التى بدأ بها الكاتب مؤلفه ، إلا حديث عن علاقة الدين بالدولة ، متسائلا عن العلمانية ومفهومها ؟ والصراع بين أنصارها ومعارضيها ، مبينا أن هذا الظلام نتيجة البعد عن منهج الإسلام ، والكتاب بفصوله التسعة تدور موضوعاته حول فكرة الإسلام دين ودولة ، وهو أقرب ما يكون إلى الثقافة الإسلامية، وقد نهج منهج الأستاذ خالد محمد خالد ، في كتابه " الدولة في الإسلام" والذى يقول فيه: "ونحن حين نطالع آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول الخاصة بقيام الدولة في الإسلام ، لا نلتقى بآية أو حديث يقول :" يأيها الذين آمنوا أقيموا دولة ، أو اتخذوا منكم إماما وحاكما " تماما كما لا نلتقى بآية تقول ، أو بحديث يقول " يأيها الذين آمنوا اتنشقوا الهواء ..." ذلك أن القضية من البداهة بحيث لا تتطلب أمرا بها ، ودعوة إليها ، إنما يتجه القرآن ، وتتجه الأحاديث النبوية مباشرة إلى الحديث عن شكل هذه الدولة ومقاييسها وأخلاقياتها ، وعن المسؤليات المتبادلة بينها وبين الأمة.

وليس من شك في أن كتاب الأستاذ عبد الرحمن على فلاح ، صنع فيه صنيع متقن ، فقد صبر على جمع ما نشر من مقالات في الصحف العربية والخليجية ، وراجع النصوص القرآنية ، والأحاديث الشريفة ، واستشهد بمواقف الصحابة والخلفاء فلابد أن يكون قد تتبع سيرهم ، إلى جانب أنه فصل العناوين ، وجعل منها ما يعين القارئ على فهم أفكاره.

وجاء الحديث عن موقف الإسلام من العلم والعلماء ، مبينا أن النبوغ العلمى ليس حكرا على أمم دون غيرها ، بل لقد نال المسلمون فضل السبق في هذا المجال ، فالعقلية المسلمة الحقة مبدعة ، بل هى المولد لعقليات أخرى متقدمة ؛ غير أننا لم نأبه بهم ولم نولهم حظهم من التشجيع حتى نشبط أعمالهم ، ولو أتيح لهم المناخ الملائم لبرزوا في جميع الميادين ، وليس أدل على إقبال الغرب والشرق على العلماء النابهين من المسلمين من أنهم أهل لذلك العلم ، ومع ذلك فإنهم يقعون دائما بين " المطرقة و السندان" . كما يذكر المؤلف . وذكر أن الدكتور محمد عبد العليم مرسى، حذر في مقاله في جريدة "المسلمون" من بقاء علمائنا في الخارج يعتبر نزفا في الجسد الإسلامى ، وهم ثمرة ينتفع بها الآخرون .

ونقف عند محور آخر من محاور الكتاب ، وهو محور الرق في الإسلام وأن الإسلام جاء بالعتق ، وما جاء بالرق ، فجعل للعتق واحدا وعشرين مصدرا ، وللرق مصدرا واحدا ، وأن السيادة لله تعالى مع تفويض منه لرسوله ، وتفويض من الرسول للمسلمين ، وأنها أصل قيام الدولة الإسلامية الواحدة ، ومن ثم كان لابد من التنويه عن القضاء وشروطه ، كما رأيناه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعند أبى بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، وأن الحق لا يضيع في ظل الشريعة الإسلامية ، وفى ظل الحكم القائم على الشورى ، وهناك آراء مستشهد بها حول هذا المبدأ ، ومع وجود الدواوين في الدولة الإسلامية وقيام محكمة المظالم لرفع الأحكام الجائزة ، وبذا يكون الإحياء للأمة الإسلامية، والضمان لبقائها وتفوقها، فالشريعة الإسلامية قضية وجود ، امتازت بالخلود والثبات والتطور

والعالمية ، لأنها خاتمة الشرائع الإلهية ، ذات الرؤية الشاملة ، ومصدرها الحق ، وأسسها ليس من وضع بشر ، ومن أجل ذلك كان القرآن خطابا إلى العقل الواعى ، وإلى العقل المفكر ، ففيه من الفضائل ما يرقى بالإنسان إلى مراتب الخالدين أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وفى ظلهم نشأ المجتمع الفاضل . فى كل زمان وكل مكان . يبنى فى شموخ ، ويخلق حضارة ، ويجعل للإنسان هيبته وعزته وكرامته ، ولا يدعو للفساد والإبادة البشرية ، ويبين حقيقة الجهاد وآدابه وشروط النصر ، وهو مصدر لأركان الإسلام الخمس ، والحج ركن من هذه الأركان .

ولكى يصير الحج ركنا عليك أن تقرأ حديث المؤلف حول هذا الاستفسار ، فلعلك قانع بما يرشدك إليه ، وعلى المرء أن يتأمل ويتدبر ويتبصر ما فى آيات الله ، وسنته وشرائعه ، وما جاءت به أفعال وأعمال وأقوال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتساءل المؤلف فى استنكار ودهشة ؛ هل التخلف والانكسار والذل والتبعية قدر هذه الأمة؟ أم هو حالة مرضية ؟ يريد بغيرته على هذه الأمة أن تعود لسابق عهدنا بها ، لأن ما نحن عليه من صنعنا وبيدنا التخلص منه ، ونحن قادرون على ذلك فى سهولة ويسر ورحمة ، فالدكتورة " زنيغريد هونكه" فى كتابها " شمس العرب تسطع على الغرب " تنوه بفضل المسلمين فى مجال النهضة العلمية والحضارية ، ومن قبلها الدكتورة " لورافيشيا فاغليرى" أستاذة اللغة العربية ، وتاريخ الحضارة الإسلامية فى جامعة نابولى بإيطاليا ؛ وقد وصف الأستاذ "منير البعلبكى" فى ترجمته للكتاب بأنه "دفاع عن الإسلام".

● الكتاب نشر دار السلام للطباعة والنش والتوزيع والترجمة . القاهرة . مصر سنة ٢٠٠٠ . ١٢- شارع الأزهر . ص.ب ١٦١ . الغورية

(٣٠)
(القلب الطائر)

تنفس الصبح ، وأزال عن الليل وشاحه ، وتذكر رفيقى الشارع الطويل الممتد الذى أخذ يقطعه ليودع حبيبا غاليا طالما عاش فى حنانه وحماه ، وما أن اقترب بخطواته الوئيدة نحو المكان الذى تعود أن يرتاده صفوا رائقا حتى أوقفه شيء غير عادى ، كراسى مصطفة، وحركة واجمة ، وعيون زائغة ...... جلس كالآخرين حتى يأتيه اليقين ،،،، قال رفيقى لمن يجاوره : أرى آلة حدباء فى انتظار ضيف جديد ، لم يسمع لسؤاله إجابه وظل يرقب الوجوه، وأفاق على المشهد الرهيب وتبين الحقيقة بلا مراء ، وتذكر من قال :

كل بنى آدم وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول

لقد حملت على هذه الآلة ، لا تسمع ولاترى إلا وقع أقدام ، وحركة أيد ، وأكتاف تنوء بما تحمل ، حتى تضع الأكتاف أحمالها ، وتتلى الترتيلات ، وتؤدى الصلوات ، وتوجه الدعوات ، وتسكن الأحداث ، وتتوقف الأزمان،،،،...

وعاد رفيقى إلى ذكرى الماضى الذى استراح ولن يعود، وأخذ يطرق خاشعا أمام عواصف القدر ، مسلما مستسلما لما يمكن أن يلحقه بمثل ما ودع ، ولم يجد سوى هذه الكلمات التى خطها قلمه إلى الحظ الذى شاء لحبه أن يرقد ويستريح من عناء الحياة فى ضجعة يحن إليها متسللا من هذه الغربة التى أصبحت تكتنفه بعد ضياع كل ما كان يملأ عليه أرجاء نفسه وأقطارها ... وتمضى الأيام ، وفى كل ساعة يدفعه الشوق فيرتدى ثيابه ويمضى قاصدا نفس الطريق ، وما هى إلا لحظات حتى يفيق ويعلم أن الطريق قد خلا من الحبيب ، ووقته لم يئن بعد باللقاء الأبدى ، فسهمه مرهون بالغيب ، وللغيب سره الدفين ، فلا حيلة له إذن فيما يريد ، ولا شفاء فى زيارة القبور ، ذلك العالم المجهول ، ولا رضا فى وهم وخيال يرضى لوقت ثم يصبح باهت الألوان كالأمل الشهيد ....

ويمضى بخطواته كما كتبت عليه ، وكل شيء يفنى بعد هذا الفناء ، الذى كان يظنه من المحال حتى نجوم السماء لم تزل ، والأديم صحيح ، ولم تلفظ الأرض القبور ، صحيح أن نفسه قد أبت ، وكيف بما يرى وقد قطع الطريق ... كل الكائنات أمامه تحيا ، وكل حركة تعمل بنواميسها ، وإن غابت الشمس فسوف تعود ، وتحسسها رفيقى فى ذاتها تملأ جنبات الدنا ، عند المغيب ، وفى الصبح المنير ، وعندما تتجافى الجنوب عن المضاجع ... يدعو ربه ويصلى ، فيسمع صدى الريح يرجع دعاءه فى هذا الفضاء العريض ...

قلت يا رفيقى : دع عنك هذا ، وتعال نعيد تفسير ما نقرأ عن الفناء والحياة فى قديم القصائد وجديدها ، وفى كتب السابقين والمحدثين .. قال لى : لم تتغير الأشخاص والأسماء رغم الرحيل ، وكأن الصور والأشكال هى هى تجدد وتعاد سيرتها الأولى ، حتى الأماكن التى أقوت ، تعود فى ثوب نضيد ، والعين ترنو للقديم حين ترى كل جديد .. فليهنأ من سبقنا إلى عالم الغيب ، فنحن منه قريبون ، وبقاؤنا لن يطول ، وكما جئنا نعود .. وسيظل

هاتفا يجذب أذني ويقول .... عش فإني قادم ولن تدوم ... قلت: وماذا أنت فاعل الآن يارفيقي؟ قال سأنقل إليك مشوار يومي الجديد ... هاك الصباح بعد الفجر السافر ، وقد فرغ قلة الأنام من صلواتهم ، وانتشروا في الأرض بائعو الصحف ، وجامعو القمامة ، والبوابون ... ثم الدكاكين تفتح أبوابها ، وتقطع المسافات دون غاية أو لغاية ... وأنت يا رفيقي أين من هؤلاء. قلت له. قال : أقف أنتظر الحافلة التي تقلني إلى مسيرتي ، فأراها دون سائق أو رقيب . قلت وما غايتك ؟ قال أصعد إليها فلا أحد أجده في المواجهة ، كل المقاعد خالية ، أترك مكاني ، وأهرع إلى الطريق ، أنظر من بعيد فلا أرى إلا بيوتا خاوية ، ونوافذ محطمة ، وأشجارا بلا أوراق ، حتى مواكب السيارات ، لم تعد ، وركض الأطفال ، وتوارى المتسولون ، واختفت الكلاب والقطط العمياء ، والجائعون ، وذوت الزهور وتوقفت الأمواه أمام الناظرين، وأصبح الدخان يخيم على المواقع والأماكن دون رجاء.. ثم ماذا يارفيقي ؟ ثم لاضوضاء أو تلوث ، ولا صراع وسط مدينة بلا جدران ولا أسوار ، في عالم بغير أصوات ... حياة بعد موات

وانقطع صوت الهاتف الذي كان يملأ أسماع المكان ، وكان بيني وبين رفيقي فيه حكايات، أصبح بيد مرتعشة . وخيم السكون ، يقطعه الرنين ولا من مجيب حيث كان معي في الصباح وعند المغيب وما عدت أحب الرنين فهو بكاء الرحيل .

المراجـع

١ - موطأ الإمام مالك : أبى عبد الله بن أنس الأصبحى رواية محمد بن الحسن الشيبانى تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف . المكتبة العلمية ط٢ مصر / د. ت

٢ . الأحاديث القدسية : ط ١ ، ٢ . دار الفكر العربى

٣ . عيون الأخبار : أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه الدينورى . الهيئة المصرية العامة للكتاب . د . ت

٤ . معجم ألفاظ القرآن الكريم : إعداد مجمع اللغة العربية . الهيئة المصرية العامة للكتاب. د.ت

٥ . الإتقان فى علوم القرآن : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب . د . ت

٦. الأمالى: أبى على اسماعيل بن القاسم القالى البغدادى . الهيئة المصرية العامة للكتاب. د.ت

٧ . فى ظلال القرآن : (٨ مجلدات) سيد قطب ط٣ / دار إحياء التراث العربى . بيروت . لبنان/ سنة ١٩٦١

٨ . فقه السنة : (٣ مجلدات) السيد سابق ط١ . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان سنة ١٩٧٧

٩ . مختصر صحيح مسلم : الجاحظ المنذرى . تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ط١ . وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية . إحياء التراث الإسلامى بإشراف الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع سنة ١٩٦٩

١٠ . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقى . دار إحياء التراث العربى بيروت . لبنان . مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٥

١١ . نظرات فى القرآن : محمد الغزالى ط٢ . دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد سنة ١٩٦١

١٢ . سيرة الرسول : عن طبقات ابن سعد . دار الفكر للجميع ١٩٦٨

١٣ . النظرات : مصطفى لطفى المنفلوطى . الشركة المصرية العالمية للنشر . لونجمان ط١ سنة ١٩٩١

١٤ . العبرات : مصطفى لطفى المنفلوطى . الشركة المصرية العالمية للنشر . لونجمان ط١ سنة ١٩٩١

١٥ . تهذيب سيرة ابن هشام : عبد السلام هارون . محمد رواس قلعجى . نشر وتوزيع مكتبة ربيع / حلب . د . ت

المحتـــــوى

(الفصل لرابع)

(الفصل الخامس)

المؤلف فى سطور

الدكتور/ خالد الزواوى

من مواليد البحيرة ١٩٣٤

حاصل على الدكتوراه فى الأدب العربى من كلية الآداب جامعة عين شمس بمرتبة الشرف الأولى

عمل عضوا بهيئة تدريس اللغة العربية بدولة الكويت ، ومصر

مشارك فى العديد من المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية والإعلامية

حاصل على وسام عيد العلم والمعلم المثالى وميدالية الشرف الذهبية وشهادات تقدير وامتياز وجوائز

حرر العديد من المقالات والبحوث الأدبية والدراسات النقدية فى الصحف العربية

عضو اتحاد الكتاب ، وهيئة الفنون والآداب ، والجمعية المصرية التشريعية للبيئة

تتلمذ على كبار الأدباء والمفكرين والعلماء أمثال : أ. د. طه حسين / أ.د. شوقى ضيف/ أ. د. يوسف خليف / أ .د. شكرى عياد / أ. د. سهير القلماوى / أ.د. محمد زكى العشماوى / أ.د. ابراهيم عبد الرحمن / أ . د. سعيد منصور

كتب للمؤلف :

الصورة الفنية عند النابغة الذبيانى . الشركة المصرية العالمية لونجمان ١٩٩٢

تطور الصورة فى الشعر الجاهلى . مؤسسة حورس للنشر والتوزيع . الإسكندرية سنة ٢٠٠٠

النقد والبلاغة بتكليف من وزارة التربية والتعليم الكويتية سنة ١٩٧٠

التعليم المعاصر قضاياه التربوية والفنية . مؤسسة طيبة للنشر والتوزيع . مصر سنة ٢٠٠١

كتب تحت الطبع :

مشاهد أبكتنى

اكتمال المشاهد فى النص القرآنى

اللغة العربية وثبة ونهضة